

تقاسيم الحضور والغياب - رواية - ٢٠٠٢

غسان كامل ونوس

الفصل الأول

- ١ -

الشمس لا تغير موعدها ولا تنسى أحداً، رُبَّما كان هذا من حسن حظ المسكونة التي لا تفكر كثيراً في أمر من قبيله. ولا يضيرها أن تواصل النوم؛ إذ ليس من كبير فرق بين ليلها ونهارها، أو بين أحلامها وأفعالها؛ سوى في عادة ممارسة الحياة، ومتابعة الفصول والمواسم في أوقات معلومة ممطوطة.

صف طويل متصل من بيوت الحجارة والطين، يزُرن السطح في منتصفه تقريباً؛ يوازيه، ويوازي الوادي، صفٌ آخر مقطوع في وسطه، ليفسح المجال لشجرة خرّوب معمرة، كي تفرش ظلّاتها على ساحة لا تتسع كثيراً.

هذا هو الهيكل القديم للضيعة التي لم يغيّر من مشهدها كثيراً تناثر بيوت الإسمنت التي لا زالت تتعثر في فرض حضورها شكلاً ولوناً.

وهذه هي المسكونة المستكنة لعزلتها، الراضية باستقلاليتها حارة تابعة بعيدة؛ تنهض بنتاقل وتهشّ أحياءها بشراً ودواب، صوب السفوح المنحدرة، والأراضي المستصلحة التي تمثل ذروة الإنجازات التي يفاخر أبنائها بها، وتكفيهم شرّ اللوم والعتب والالتهام، وتغنيهم عن السعي خارج الحدود؛ السعي الذي جربه الأولون بعيداً حتى أطراف الدنيا في (بنوسيرس) و (تشيليا)، وعاد من عاد منهم وبفمه مصّاصة، وفي جيبه مهر العروس التي سترضى..

أما من ظلّ هناك، فلم يبق له هنا من ظلّ سوى شكوى أولاده المشرعة، وبياب مشاعر قرابة أو عواطف زوجية.

وجربه الآخرون قريباً من الحدود، وما يزالون يروحون ويجيئون، دون أن تستطيع آثار هذا وحكايا ذلك أن تجلو الغبار عن وجه المسكونة، أو تمسح الرمدم من العيون التي تختلط فيها دموع الأسى المزمن بدموع الضحك المتحفر الذي يقحب في أماكن متعددة وأوقات مختلفة، ويتناوب، وربما يختلط، مع أصوات عراك وغناء وبكاء وسمر، وأصوات بهائم تنشد الخصب والانفلات والشبع. وفي الوقت الذي ترك أبناء المسكونة المقيمون الأشجار تحاصر بيوتهم، وتتعالى فوق أسطحها، وتضيّق دروبهم، وتشرذمها، وتقلل من فسحات النور التي تسمح بها

الجبال المحيطة، والغيوم السود التي تصل ما انقطع بين قممها أياماً كثيرة من العام، راحوا يطيحون بها في السفوح البعيدة خلف تلك الذرى الشاهقة، تمويهاً وابتعاداً عن عيون رجال الحراج، الذين يكتفون بإكرامياتٍ تحول دون ملاحظتهم تكاثر الشامات البنية في اللوحة الخضراء، وتقيهم شر ملاحقة الفاعلين في مناطق عصية، مناطق تغص بالحركة صباحاً وعصراً؛ إذ ينضم الرعاة بدوابهم، والدارسون بكتبهم، إلى شرايين تلك التلال والسفوح الغابية، شاغلين الوقت والمكان المضامين بكل ما يخطر على أفكارهم التي لا تزال تبحث عن شرايين أخرى متقاربة أو متباعدة..

وما أن يبدأ الليل دبيبه الأسود، منطلقاً من تحت الأشجار وجوارها إلى الفضاء الأرضي، حتى يشع احتراق مكتوم في أماكن متعددة من المسكونة، حيث تشعل النيران في أعواد لا زالت تُهَسَّهَسُ في عروقها أصداء الحياة التي أشرعتها زمناً، وطافت بها صوب الضوء مسافاتٍ قبل أن تقنط وتوضع في أماكن مخفية، وتغطى بما يمنع عنها الاحتراق العلني الذي لا يُسمح به وصولاً إلى حال تفحّم مطلوبة، بعيداً عن سيات المخالفات وهموم الرشاوى.

مشاعر عديدة تتوزع الضواحي القريبة، والأراضي البعيدة، حتى صارت نقاط علام بأسمائها التي تتبع مواقعها: مشجرة القلع، مشجرة الجورة، مشجرة الدوارة...

مهنة قديمة اعتادتها المسكونة في أزمنة الحاجة المتعاقبة، ساهم في استمرارها توافر الأشجار المتنوعة في هذه المنطقة الحراجية المعرضة لعمليات استصلاح متواصلة.

ورغم الاحتراز المفروض نهاراً، يمكن ملاحظة دخانٍ ينزّ من نقاط متعددة متناثرة في السفوح والأودية، بعضه ليس سوى صدئٍ لاحتراق الليل، وبعضه الآخر ناتج عن مغامرة الإيقاد المتواصل على مدار الساعة اختصاراً للوقت الكلي اللازم. لكن الليل يبقى الميدان الأكثر أماناً وجدوى للمشاعر المعترية.

برنامج دخل في عادات المسكونة، ونفسيات أهلها الساهرين على الاحتراق، المراقبين شروطه وظروفه، المتحفّزين للتواصل معه، الحريصين على متابعته، إلى أن تحل مرحلة التفحّم التي قد تطول، والتي لا تعني في النهاية سوى الاستعداد للتوهج الأخير قوتاً ودفناً و.. رماداً.

هذه هي حال أغلب القضايا والأحداث في المسكونة، التي قد تغضّ الطرف عن دروب سرية يعبرها المغامرون، أو يستدرج إليها الغافلون، وينقاد إليها التابعون، وتخبيئ احتراقاً داخلياً، تجهد أن لا تصل ألسنة نيرانه إلى البعيد، وتترك لدخانهِ فسحة تناثره الليلي أو النهاري الذي يضيع في مسارب عديدة وفضاءات ممكنة، حسب نسائم مختلفة المنابع، متعددة الاتجاهات. إلى أن يحين الوقت الذي تحدده الأقدار السماوية والأرضية، أو الظروف والحظوظ، فيكشفُ الستر عن بضاعة غير مكتملة الحرق، قابلةً لاستكمالها..

فهل كانت قضية شهلا ومرزوق مشجرة المسكونة؟!

لم يكن ليخطر على بال شهلا أن تؤول رحلتها تلك إلى مثل تلك النهاية؛ كما لم يخطر على بال أحد من الذين اعتادوا أن يروا شهلا تسافر إلى زوجها في بيروت، أكثر مما اعتادوا أن يأتي إليها؛ هو الغارق في الوهن والعرق، والمنكس رأسه أبداً جرّاء أحمال تنتوع وتشكل وترداد أحجامها وأوزانها، أو تنقص، حسب ما يتيسر له، أو يطلب منه، وحسب حمولة السيارات القادمة إلى هذا المخزن الكبير.

وعلى الرغم من المدى الزمني المتطاول الذي تواصل خلاله تعامله مع الرافعة وحمولتها وخطافها، فإن الحذر واجب في كل لحظة؛ مما لا يدع مجالاً للتفكير بأمور أخرى؛ حتى لو كانت أموراً بالغة الخصوصية كزوجته وأولاده؛ هذه الأفكار لا تزوره إلا قليلاً في ساعات المساء التي لا تطول؛ إذ سرعان ما يهبط النعاس كطائر رخّ يلقي ظلاماً يخيم على عينيه ووجهه ووعيه. ويهيمن عليه حتى الصباح التالي.

وما كان فقدان إحدى أصابعه، ذات مرة حين شدّ الخطاف فجأة دون أن يستطيع سحب يده التي تعلقه في الحبل المعدني القاسي، ليمنع حدوث أمور أخرى، أو ليقفل من فرص وقوعها. فقد دُفع أكثر من مرة، وألقي على الأرض في حالات متعددة. لكن الرضوض والجروح سرعان ما تندمل أو تُتناسى تحت وطأة العمل وضرورة الإضافة وإلحاح الحاجة إلى المزيد من النقود التي تنتظرها مسارب عديدة فاغرة لابتلاعها في القرية، دون رحمة أو تقدير أو حس بالمسؤولية. حتى أن كثيراً من الحوادث لم تصل أخبارها إلى المسكونة؛ كما أن حدوثها صار عادياً لدرجة أنه قد لا يستوجب انشغال شهلا أو زيارتها. لكن الدرويش لم يكن يتوقع أن يحصل ما حصل، شهلا لم تخمّن ذلك، وإلا لكانت قد فكرت كثيراً قبل أن تقدم على ما أقدمت عليه.

وعلى الرغم من أهمية الحادث الذي وقع له، وحساسية العضو الذي تعرض للضرر، فإن الأمر كان يفترض أن يكون وقعهُ أقلّ مما كان فعلاً؛ فحاجة درويش له ليست ملحة، وهي لا تتعدى مرات قليلة في السنة، حين يعود إلى القرية، أو تزوره زوجته، حين يخطر ببالها، أو تحتاج ذلك، وهذا ليس كثيراً على كل حال.

وقد صرح درويش أكثر من مرة، دون حرج، ودون اعتبار لاستهزاء أقرانه هناك الذين يصلولون ويجولون ويفاخرون في ذلك الميدان، أن الحاجة الأساسية له لا تزيد عن ضرورة تفريغ السوائل التي يكثر منها إطفاءً للحرارة أثناء ساعات العمل الطويلة، ولولا ذلك لنسيه تماماً؛ ولم تكن حاجة زوجته إليه أكثر من ذلك—هذا ما كان في ما مضى— أما في هذه المرة فإن الأمر كان ملحاً وضرورياً ومصيرياً، كأنما هو تكثيف لكل الزمن الذي مرّ. وهو ما جعل شهلا تعد العدة وتقرر السفر إليه على عجل.

والدرويش الذي أضاع سُبحة الزمن، وهربت منه التقاويم، وضيّع الجَمع والحساب، لن يكون من الصعب استغفاله أو التحايل عليه، وهو لن يستطيع اكتشاف الحالة بعد أشهر، كما أن من المعتاد أن تلد المرأة في الشهر السابع من حملها، وأن يكون المولود طبيعياً كابن التسعة تماماً!

وهو أمر مريح وحجة دامغة، ولا يستطيع أحد إنكارها حتى لو كثرت هذه الحالات في حيّز ضيق. وحتى لو كان الشهر ثامناً، ولو كانت الملامح لا تصب في المجرى ذاته الذي يجب أن تؤول إليه عادة!!

ولم تستطع شهلا حين التقته. إخفاء شوقها إليه ولهفتها لوصاله؛ الأمر الذي فاجأه تماماً. أما الأمر الذي أدهشها، فهو عدم مبادلتها الشعور ذاته، والعواطف عينها، حتى تمثيلاً؛ فقد وجدت نفسها أمام تلك النظرة المواربة، وذلك الرأس المطأطأ، وحالة الانكسار التي تستوطنه بدءاً من صوته، وانتهاءً بمشيته، مروراً بحديثه وطريقة استقباله وأسئلته وإجاباته.

لكن ذكاءها الذي تستخدمه في غير محله دائماً، لم يكن قادراً على استكشاف السبب. حتى كانت لحظة الاعتراف، التي صعقتها، بعدما أسقط في يده، وعجز عن متابعة التأجيل بادعاء التعب والإرهاق والمرض، أمام إلحاحها الذي لا سبيل إلى كبح جماحه، ولا راد لتياره الجارف الذي تحول، بعد لحظة جمود، إلى أمواج من السباب والشتائم والصياح والعيويل والنحيب، وشد الشعر وتمزيق الثياب، وتكسير الأغراض، استمرت ساعات وأياماً، وبعد أن طافت بيروت والمسكونة، حتى استقرت الفضيحة في مشفى الأمراض العقلية. وانتقلت الألسن من عبء الكلام الهامس في الموضوع، إلى كلام آخر حول الأسماء التي راحت ترددها على مسامع القاصي والداني: أسماء يافعين ورجال وعجائز، أحياء وأموات، حاضرين وغائبين.

وهذا ما جعل الاسم المقصود يضيع في سلسلة الأسماء، والتي كان ذكر بعضها دليلاً، لدى من يهتمهم الأمر، على عدم دقة ما تذكره، نظراً لما يعرف عنهم من السمعة والخلق والسييرة الحسنة.

وإن كان ذلك لا يعفيهم تماماً في نظر آخرين، بل إن هذا كان سبباً لإدراجهم في القائمة السوداء ولو إلى حين.

وقد دار سؤال بين الناس زمناً على سبيل المزاح: هل طلع اسمي؟!

أو هل ورد اسمي في سجل المطلوبين (احتياطاً)؟!..

لكنه في نظر الكثيرين مزاح أقرب منه إلى الجدل!

- ٣ -

-نظر، في الساعة السابعة صباحاً، سمعت؟!!

-إذا لم أستيقظ، افطروا أنتم؛ أنا لا تفكروا فيّ، أفطر حين أفيق!

لم تدرِ شهلا السبب الذي جعل الصفعات تنهال عليها، وأحست بدوار الغرفة التي لا تشبه بيتهم في شيء، بينما رأسها يروح ويأتي، وجسدها يتلوى ممسوكة من جدائل شعرها الطويل، الذي لم يبق كذلك.

كانت تحسب أنها تكلم أمها، ولم يستطع عقلها أن يفهم بُعد معنى (المعلمة) التي لفظها والدها السعيد بالثمن الذي اتفق عليه معها حين قال وهو ينهض:

-اسمعي كلام (معلمتك) يا شهلا، بلا مشاكل ها..!

كانت لا تزال مندهشة مما ترى، الاندهاش الذي ما انقطع، منذ خروجهم من المسكونة، مجموعةً من الآباء والبنات باتجاه بيروت التي ضاعفت من حال الذهول من كل شيء، بدءاً من السيارات، مروراً بالطرقات والشوارع، وصولاً إلى البنايات المتعالية؛ تعثرت بالرصيف وبقدمي أبيها وبالدرجات، وكان جسدها في كل مرة يُجَرَّجُ خلف اليد الخشنة التي لا تمهلها حتى لاستعادة التوازن، ذاك الذي لم يتحقق حتى وهي جالسة على أريكة جوار أبيها؛ فرجلاها لم يصلتا تماماً إلى الأرضية الملونة التي كادت تصطادها من رأسها حين تعلقت بها عيناها وهي تبحث عن مكان لقدميها، وانزلت يدها عن طرف (الكنبة) الأملس، فتمسكت بركبة الرجل المنشغل عنها بتعداد الصفات المرغبة:

-تطبخ، وتكنس، وتربي الأولاد، وتعنتني (بالدواب)..!

فانتبهت إلى مقاطعة المرأة:

-وهل ترى عندنا (دواب) يا...!

واستغربت ارتفاع صوت امرأة في وجه والدها، واستغربت أكثر ارتبাকে وتلعثمه، كما كانت تفعل هي وأمها وأخواتها أمامه؛ هو الذي لا صوت فوق صوته، ولا رأي إلا رأيه، ولا كلام بعد كلامه؛ لكنها سرعان ما انشغلت بصور ورسومات على الجدران والسقف، ودارت بنظراتها المضطربة في مختلف الاتجاهات: فمها مفتوح، وجدائلها تهتز مع الحركة المتوترة، فترة لا تعرف مقدارها، إلى أن نهض والدها فنهض قلبها، وتعلقت بثيابه:

-بيي.. خذني معك!

قبلها، ناول يدها التي كانت متشبثة؛ بيده إلى يد السيدة التي انتزعتها وعصرتها، حتى حسبت أن الصوت الذي طاف على مسامعها مخترقاً هلعها كان في منام:

-سأعود غداً..!

قال ذلك، وهو ينزل الدرجات، مسرعاً، دون أن يلتفت إلى الوراء.

لم تنم ليلتها، ولم تأكل، أبكتها أوجاع الضرب، وأوجاع أخرى وهي تبحث عن شعرها، عن أخواتها، عن أمها... ولم تفكر سوى بأمر واحد: أن يعود أبوها غداً كما وعد، وتذهب معه.

تعجبت من طلوع الضوء دون صياح الديك، وتعجبت حين أمرتها (سيدتها) -كما طلبت منها أن تناديه- أن تبقى داخل المطبخ، ولا تخرج إلى الغرفة التي جلسوا فيها بالأمس. ولم تفهم السبب، إلا حين سمعت صوت أبيها يسأل عنها، وسمعت السيدة تقول: إنها نائمة.

وحين استفسر إن كانت قد بكت بعد ذهابه، أجابته:

-بالعكس؛ مبسوطة، تكاد تطير من الفرح..

فصرخت شهلاً بصوت مخنوق: بيي.. بيي!

وضربت الباب بيديها، وسمعت صوتاً عزيزاً يناديها، وصوت السيدة تسكته وتطرده، والأصوات ترتفع، والضجة تزداد إلى أن استطاع الوصول إليها، وحين رأى رأسها الأجرد طار صوابه، وصرخ مزجراً:

-ماذا فعلتم بها؟! لماذا قصصتم شعرها؟!!

-مقملة.. ماذا نفعل بها؟!!

أخرج شيئاً من جيبه مزّقه، رمى بما قبضه أرضاً، حملها بين ذراعيه، ونزل بها لا يلتفت وراءه، حيث صُفّق الباب، بعد أن سمع سيلاً من الشتائم والإهانات..

وفي الطريق إلى المسكونة.. كانت شهلا جالسة على رقبة أبيها، قدماها متدلّيتان من الأمام تمسكهما يدان بقوة، ويدها تمسكان رأسه، والظلام يحيق بهما من كل جانب، حين سألته: ما الذي يركض حولنا يا أبي؟!!

أجاب وقد أحس أن قدميها تضغطان على صدره:

-دابة أضاعها الرعيان.

-ولكنها تضوي..! كالسراج..!

ضحك الأب ضحكة هزيلة: هذا (بصّ بصيص)... معلق على رأسها.

-ولكنهما اثنان!

ولم يجب، وهو يغالب الخوف من أن تعرف أن الضيّع ترافقهما.. حاول إشغالها بالغناء، لكن صوته تعثر، فتصنّع السعال، وبينما هو يدعو الله، وينذر أن يمر الزمن الباقي لعبور الوادي الذي يفصلهما عن الضيعة بخير، قالت: لماذا يبص (البصّ بصيص.. يا ببي..!!).

- ٤ -

كان يمكن لتلك الرحلة أن تكون الأخيرة لشهلا، أو لوالد شهلا، الذي زاده حزن الأم على شعر ابنتها وعذابها من معاناتها، إصراراً على إبعاد التفكير في مثل هذا الموضوع مراراً.

لكن الأفواه المشرعة للأخضر واليابس، والصحة التي لا تساعد كثيراً على العمل في الأرض، والسخرية منه ومن ضعفه وجبنه وقلبه الميت (كالنسون)، وفوج الذاهبات من جديد، كل هذا جعله يعيد النظر في موقفه. وما ساعده في ذلك موقف شهلا نفسها، بعدما تعرضت له من ضحك واستهزاء وألقاب موجعة: عنيدة، مخالفة، (قرعا) أو (بو قرعة) هذا اللقب الذي كان يؤلمها أكثر ويذكرها بسخريتهم منها حين حاولت الذهاب إلى الخطيب للتعلم مع صبيان الضيعة في حارة أخرى.. إضافة إلى تلك الإثارة التي عاشتها ولو لساعات قليلة، وذلك العجيب الغريب الذي حرك في عقلها وسواس الرغبة لرؤيته من جديد.. لكن تلك الرغبة سرعان ما تصدّعت حين وصلت إلى هناك للمرة الثانية، وقد جاهدت أن تصبر أكثر من المرة الأولى، ولا سيّما أن البداية كانت طيبة، ولم يبذ على معلمتها/ سيدتها الجديدة ملامح قسوة كتلك التي كانت تسم

السيدة الأولى، لكن هذا لم يكن إلا قناعاً سرعان ما أسقط حين تأكدت أن شهلا صارت وحيدة، ولن تجد أمامها سوى القبول بالأمر الواقع الذي لم يستمر أكثر من أسبوع. عادت بعدها مع الدرويش المقيم في بيروت منذ صغره والذي نفذ رجاء والدها.

وعرّج على شهلا كي يستفسر عنها، فهرّبها بعد أن رقّ لحالها حين رأى علاماتِ الضرب على وجهها وجسدها؛ تلك التي ظهرت في ما بعد لوالدتها التي ولولت، ووالدها الذي صعق لمرآها، وقد كان المبلغ الذي قبضه لقاء عقد خدمتها قد تبخّر.

تقلقت أحجار البيت، واهتزت (سواميكه)، وزاد انسراب التراب من بين أخشاب السقف بعدما نشطت الحشرات فيه بتواتر ظاهر.

وازدادت حال شهلا عناء، ولم يغفر لها انهماكها في تحمل المسؤولية، والقيام بأكثر الأعباء الممكنة في البيت وخارجه، ضاربة عرض الحائط بكل التعليقات والإهانات التي يمكن أن تأتي من الخارج؛ أما في داخل البيت، فلم يكن الجحيم أقل؛ إذ لم تجرؤ على وضع وجهها في وجه أبيها أو في وجه أمها التي كانت تنوح وتضرب رأسها بيديها، هي (بالعة الموس على الحدين)... وهذا ما جعل الوسواس يعود للظهور في رأس شهلا مع تضاعف الشعور بالذنب، للحال التي استوطنت البيت.

وكان الحافز الرئيس لقرارها الخوض من جديد في معمعة التجربة المرة، ما قرره الأب تحت ضغط الخوف من ملاحقته لدفع المبلغ السابق، والإنذار الذي ورد حول ذلك من مكتب تشغيل الخادمت، وهو أن يأخذ أختها الصغرى هذه المرة بدلاً منها.

هذا ما تناهى إلى سمعها في وقت ما من ليل شديد البؤس واهن الضوء، بعدما كاد ينضب سائل السراج؛ حيث كان النوم عصياً عليها، كما كان مضنياً وشاقاً وممتنعاً على أبويها.

نظرت إلى أختها التي تجاوزها على الأرض المتربة، كانت مستلقية على ظهرها فوق فراش من أكياس الطحين، تنام بوداعة وأمانٍ وهدوءٍ الذي لا يعرف عن مرارة هذه الدنيا شيئاً بعد، كما لاحظت شهلا التي أمعنت في وجهها المستكين وأنفاسها الرتيبة؛ لم تتبين عناصره جيداً، لكنها تحفظها: عيناها السوداءوان، ووجهها النضر، وشعرها الأسود الذي يظهر، رغم الضوء الخافت، منفرشاً بعيداً عن رأسها، فيقع تحت رأس وجذع أختها الثالثة.

امتدت يدها إلى خصلات شعر أختها، تحسستها بأصابعها، وصفعتها على وجهها، ثم امتدت يدها الأخرى إلى رأسها هي؛ لم تزل (بوقرعة) رغم أن شعرها طال قليلاً، لكن شعور كثير من صبيان "المسكونة" تفوقه طولاً وتسريحاً.. أعادت النظر إلى شعر أختها، برق في رأسها ألم صاعق، لا.. لا.. حرام أن يقص هذا الشعر، حرام.. حرام..!

وفي الصباح الباكر الذي لم ينذر صياح الديكة بقدمه، أو ربما لم تسمعه، لأنها نامت بعد اتخاذها قرارها عن رضى وقناعة وثقة.

فاجأت أبويها القاعدين منهكين يحتسيان المتة من كأس واحدة، وعلامات الضنك والعناء ترسم معالم وجهيهما؛ توجهت إلى أبيها، وقفت أمامه، حدقت في عينيه، أسبلت يديها:

-أنا جاهزة للذهاب معك إلى حيث تشاء يا أبي!.

-٥-

في الرحلة الثالثة، كان شعور مختلف قد بدأ يتسلل إلى إحساسها، شعور أكثر من الإثارة، وأخف من الدهشة، جعلها تمشي على كامل رجليها جوار أبيها، وفي بعض الأحيان، كانت تفلت يدها من يده لتسير وحيدة، فيسارع إلى التقاطها خوفاً من جنون السيارات والمارة؛ حتى نظرتها إلى الشوارع والبنائيات والناس تغيّرت؛ فلم تعد تحس بالرعب أو النفور منها. لكن شيئاً من الانقباض لم يفارقها، وقدراً من المرارة لا يزال يبث ألوانه القاتمة في حنايا النفس.

كانت قد عقدت العزم على الاستمرار مهما ساءت الظروف، الظروف التي لم تبدُ كذلك، إذ سرعان ما انسجمت معها، واندغمت فيها، وتآلفت مع غرف البيت وأغراضه ونظامه وأفراده ومواعيده، منذ أن رأت شيئاً من الرضى النادر في عيني والدها حين استلم (المعلوم) الذي سيرجعه إلى الأسرة القديمة. وأحست حينها أنها تقوم بعمل كبير، وواجب هام، وتتحمل مسؤولية معتبرة، خاصة حين ودعها بطريقة مختلفة، قبلها على رأسها، ربت على كتفها، صافحها وتمنى لها التوفيق. وأسرع كي يغالب -كما كانت تغالب- دمعاً مختلفاً طعمه أيضاً.

فهل هذا ما جعل حالها أكثر راحة؟!

أم هي "كتيبة" الشيخ إبراهيم التوفيق التي أدخلت الطمأنينة إلى نفسها، والسكينة إلى قلبها، والهدوء إلى دمه المتحقر؟! كما أكد الشيخ لأمها، حين ذهبت لإحضارها لها، في المساء الذي سبق رحيلها، وأضاف بعد أن طلب أن تعلقها في رقبته، تحت ثيابها، وهو ينظر برضى إلى سلة البيض وجرة اللبن التي أحضرتهما: ستحميها بإذن الله من أولاد الحرام..!

أم هو وداع مرزوق، وتشجيعه لها، وقبلته، يوم أن قررت الذهاب، وأخبرته؟!

لم تكن القبلية الأولى، لكن زمانها ومكانها تركا في شفتيها طعماً مميزاً...

كان مرزوق رفيقها رغم أنه يكبرها بسنوات، وأكثر الأولاد قرباً منها لهواً ومشاكسة وخصاماً ومصالحة، يتعانداً في كل شيء حتى في من سيرد الدواب إن اقتربت من الأراضي المشجرة، أو ابتعدت في الحراج الكثيفة.

وكثيراً ما سبب هذا لهما عقوبات مشتركة، جرّاء الأذى الذي لحق بالشجيرات الفتية، أو لما ضاع من البهائم ساعاتٍ أو أياماً، قبل أن تعيده (كتائب) آل التوفيق، أو اختفى إلى الأبد.

كانا يلعبان (المستخبائية) اللعبة الدارجة التي تساعد عليها طبيعة المسكونة، وقد يمضي وقت طويل قبل أن يكتشف أحدهما موقع الآخر، لكنه كان عنيداً أكثر، فقد بكت مرات، هي التي لم تكن لتبكي إلا فيما ندر، حين يعود إلى البيت تاركاً إياها تنتظر في مخبئها إلى ما بعد حلول الظلام. فتحرد وتزعج وتحلف أنها لن تعود للعب معه، لكنها كانت تتراجع في كل مرة، حين تنظر إلى قامته المديدة، وعينيهِ المواربتين. في حالات معيّنة، تحس بأنها تفقد الكثير من اتزانها؛ كثيراً ما حاولت مغالبة هذا الشعور في حضرته، ليعود في غيابه.. أوقاتها المشتركة

كثيرة، يبتعد عنهما الأولاد، لأن وجودهما يعني تحول الاهتمام إليهما، ويصبح الآخرون متفرجين أو تكملة عدد لا غير؛ فقد يختلفان على نوع اللعبة، ويتنافسان بعناد على تحديدها، وقد ينسيان الباقيين، أو يتركانهم في منتصف الشوط ويذهبان. وكثيراً ما اختلفا على حامل سر المغارة، أو من سيقود المعسكر، ومن سيكون سيّد الحراميّة.

تخاصما في ما بينهما كثيراً، وتخاصما مع الآخرين، كل منهما من أجل الآخر، أكثر. في رحيلها الأول، لم يستطع تفسير مشاعره تماماً؛ أحس بفراغ لم يدم طويلاً. انشغل بعودتها، وانقبض من منظر رأسها الأجرد.

سألها: ما هذا؟! رأسك مثل "دوّارة الرنّجس".

قالت: زعلان على شعري؟!!

-من أين سأشدك؟! وكيف سأجرّرك ورائي؟!!

-بعيد عليك ذلك..!

-سنرى!

في العودة الثانية كانت متصدّعة منهكة ضعيفة، فرح لرؤيتها، أهداها كمشة فراش، ووردة في إناء كبير سرقها من دار أم سعد. طلع إلى أعشاش الدوري على شجرة السنديان الضخمة كثيرة النمل، أحضر الفراخ، ذبحها بريشها، وقدمها لها.

قالت وهي تنظر إليها مدممة بين أصابعه: لمَ هذا؟!!

قال: حتى تأكليها وتصحّي!

وكان أخبرها في ما مضى أنه يكره صوت العصافير، خاصة الدوري الذي لا يسكت، ويكره الديك الذي لا ينام، ولا يترك غيره يفعل، ويتحسس، ويثور من صوت الدجاج الذي يمتنّ بالبيض قبل أن يبيض وبعده، كان يضرب الدجاجة لتسكت، فتكسر رجلها أو تموت، وتركض الأخريات مطلقاً زعيماً حاداً، فتعلو الصيحات المخيفة طاردةً الثعلب، وداعية كلاباً قد لا تكون موجودة أو مستعدّة لذلك.

في المرة الثالثة ودعته، لم تفعل ذلك قبلئذ، قال: لا تذهبي!

دهشت من موقفه: لماذا؟!!

-هكذا، ظلي هنا!

-لم تقل لي ذلك قبل الآن.

-أريدك أن تبقي هنا!

-وعدتُ أهلي، لا أستطيع..

وحاولت إرضاءه بوداع مميّز.

وحين غادرت إلى بيروت، أحس مرزوق أن المسكونة ضيقة وباردة وكئيبة، فقرر مرافقة
الذاهبين للحصاد في أماكن بعيدة رغم يفاعته.

بكت والدته: يا حسرتي، لم يعتد على العمل.

وعارضه أبوه الذي ذهب أيضاً، لكنه أصر على الذهاب إلى أراضٍ أخرى مع مجموعة لم يكن
والده في عدادها.

وكانت أياماً مشهودة: أراضٍ واسعة شاسعة بعيدة عن البيوت والقرى، ونهارات طويلة، وشمس
حارقة، وحشرات وأفاع متربصة.

مع ذلك فقد جرى الكبار، وبالغ في إشغال نفسه، وإتعب جسده حتى ينام نوماً كالموات..

ولم يعد مرزوق إلى المسكونة حين عودة (الحواسيد)، بل انتقل إلى بيادر الدّراس؛ كان يجلس
على المرج، ويدور من الصباح إلى المساء، والشمس تحرق ذنب العصفور وذيل الحصان الذي
يسير أمامه؛ الحصان الذي يحرن أحياناً فيهشّه بسوطٍ في يده، فيعود للدوران، ويدور معه من
جديد حول نقطة واحدة طوال الوقت. ومن (الصيوان) الكبير المطل على البيدر، كان (البيك)
يهش الجميع بأوامره ونظراته ورغباته، فيدورون في أي اتجاه، دون أن يرفعوا رؤوسهم.

كان الدوران يبدو للوهلة الأولى دون معنى. وكان يضرب الحصان بشدة لا مبرر لها ليحس
بوجوده وجدواه، هو الذي أحسّ بالبلادة لما يقوم به من عمل، ربما، لا يستحق حتى الطعام
البائس الذي يقدم له. لكن الغبار المتطاير، والحرارة الضارية، وأكداس الزروع التي تتحول إلى
حب وقش، جعلته يفكر بطريقة مختلفة ساعده في ذلك الوقت المديد الذي لا يقطعه سوى
الانتهاء من كومة، والتحضير لأخرى، وشغلته فكرة الدوران، وتذكر أمراً مهماً حاول حفره في
ذاكرته: الدوران لن يكون ذا فائدة إلا إن كان أسفل المرج الذي يدور به، أو بأي كائن آخر، ما
يجرح.

ولم يكن هذا هو الاستنتاج الوحيد الذي توصل إليه من موسم الدّراس الذي لا يدوم في المسكونة
طويلاً، في حين يأخذ زمناً مديداً وطقوساً مميّزة في قرى المالكين، ولم ينته ذلك الموسم إلا بعد
أن كان وسواس الحركة قد تمكن من تفكيره ففي الحركة بركة، رغم أن هذه الحركة الدورانية
المتواصلة من الصباح إلى غياب الضوء أياماً عديدة تبقى مكنه. إذ إن زمناً كهذا بعد تكراره
مرات أوصله من المسكونة إلى أراضٍ الحصاد ماشياً. الفرق الوحيد أن تلك الحركة لم تكن
حول نقطة معينة، بل باتجاهها. ما الذي يحدث، إذن، لو تحولت حركته المتواصلة هذه إلى
حركة لا تدور حول نقطة واضحة؟! ماذا لو ترك للحصان حرية الحركة بعيداً عن المركز، ماذا
لو تحرك هو في ذلك الاتجاه على مرجٍ آخر وزرع مختلف.

كان اتجاهه بعد انتهاء الدّراس إلى المسكونة تمهيداً للتحرر منها.

ولم يكن يدري، ولم يدرك في خلده، أن ذلك لن يكون بالسهولة التي حسبها، أو أن ذلك سيستغرق منه وقتاً أطول مما كان يتوقع. وسيطلب جهداً وتفكيراً وغصات.. فهو لم يتوقع أن يجدها هناك...!!

ما كاد الحال يستقر في الدار الجديدة، وتتألف شهلاً شيئاً فشيئاً مع مفردات الحياة المستجدة وملاحمها، حتى كانت قد رأت أنماطاً جديدة من البشر، رجالاً ونساءً، شكلاً وحديثاً وسلوكاً، فانطلقت مع انطلاقهم إمعاناً في عزمها على الاستمرار.

لبست مثل لباس النسوة، وتزينت كما تزين، فبدأ جمالها ملفتاً؛ كانت جميلة قبل أن تأتي، وكان جمالها ضائعاً تحت غلالة قائمة من الإهمال والتعب والعرق، أما الآن فقد بدأ ذلك الجمال صارخاً. ولم تمنع سيدتها، بل هي التي طلبت منها ذلك كي تليق بالضيوف الذين يأتون في أي وقت، حتى في غياب الزوج.

لكن تغيرات كثيرة أخرى تحدث على الرغم من معالم الاستقرار والهدوء، تغيرات لا تعترف بالظروف ولا تنتظر المناسبات ولا تتعلق بالإرادة، وإن كان كثير من الأحداث والأقدار يُبنى على أساسها.

لقد أصبحت أنثى حقيقية يشار لها بالعيون والبنان حتى من قبل الزوار.

ولم يعد قصر الشعر عبئاً، بل يمكن أن يدخل، إضافة إلى الثياب المشمرة والمحفرة، ضمن تصنيف الموضة التي يمكن أن تلاحظها لدى الأخريات، أو تسمعها من أحاديثهن، بما يساعد الأنوثة على الظهور أكثر.. لكن الأنوثة التي بدت ملامحها ظاهرة على وجهها وصدرها، لم تكن لتقف عند هذا الحد الذي خلف ما خلف من ردود أفعال جريئة، بل كان لتيارها الذي يضجّ في الأعماق، ويحرض المشاعر والأحاسيس؛ ويطرق الأبواب، كان لتيار الأنوثة ذاك فيضه الدامي:

تتحرك بخفة ورشاقة، وربما تنددن بألحان صارت تتردد على مسامعها بكثرة، وهي ترتب غرفة النوم، تحاول الرقص أحياناً، تقليداً لما اعتادت أن تشاهده في هذا البيت، ثم تجلس، لترتاح قليلاً على حافة السرير، ثم تمدد سعادتها، فوق الفراش السحري. قبل أن تنتبه إلى حالها، وتعود إلى عملها، دون أن تنقصها الحماسة، أو يراودها البرود. لكنها توقفت ذلك اليوم، حين رأت نقطة حمراء على الشرف الزاهي، حسبتها شيئاً مما تضعه سيدتها على شفيتها، ثم استرعت انتباهها نقاط أخرى على بلاط الغرفة.

تلمستها، فتأكدت منها، وقبل أن تفكر في ما يمكن أن يكون ذلك، وكيف وصلت الدماء إلى هنا، أحست بلزوجة دافئة بين فخذيهما، أسرعت إلى الحمام، وصرخت بصوت مخنوق مراتٍ متتالية: أمي.. يا أمي..!

قبل أن يقطعها صراخ آخر أشد حدة: إلى المذبذبة أنت وأمك!

كانت السيدة في غرفة النوم مصعوقة:

-أين أنت أيتها القذرة، لم يبق لنا إلا أن نتعثر بأوساخك، ألم تعلمك أمك كيف تحافظين على نفسك؟! هه.. لو كان هذا يهمها ما أرسلتك حتى تبلغني عند الناس.

يا فرحتي بك، سأعمل لك حفلة طنانة وأبشر: شهلاً بلغت يا ناس!

لم تكن تعلم ماذا يعني هذا، ولم تكن تدري أن دماء يمكن أن تخرج دون جرح. رأيت أمها أكثر من مرة تخبئ شيئاً في جدار حجري قريب، ذهبت لترى ما كان ذلك، فوجدت قطعاً قماشية ممزقة وعليها آثار الدم، واستغربت أن أمها لم تكن تبكي. لكنها صارت تربط بين بكاء أمها في أوقات مختلفة، وبين الجراح التي لا تراها، والتي تسبب مثل هذه الدماء.

سألتها مرة: هل أنت مجروحة يا أمي؟!!

ضحكت الأم ضحكة صفراء، وأدارت وجهها عنها:

-حين تكبرين ستعرفين... سأشرح لك.

وفي إحدى الليالي أفاقت على صوت أبيها يقذف أمها بسيل من الشتائم، وهو يدفعها بعيداً عنه: ألا ينتهي هذا الدم؟! هل انتقل الفوار إليك؟!!

وكانت ترد بصوت كسير خافت: ماذا أفعل؟! ماذا بيدي؟!!

وراح يتمم كلمات عن النساء والقذارة.

وحين كررت السؤال في اليوم التالي، لم تجد نتيجة، بل نهرتها أمها، وأسكتتها.

الآن تحس بحرق على أمها، لماذا لم تقل لها؟! لماذا لم تفصح أكثر حين قالت:

عليك أن تنتبهي إلى نفسك من اللعب مع الصبيان، من يراك يظن أنك بلغت.

كانوا يلعبون مفتوح السيقان أو مغلقها بقمصان طويلة، لم يكن شيء مخبأً أو مخجلاً. والدواب تشرع كل شيء ما عدا الغنمة/ أغباها كما يردد الجميع، والزمان والمكان واسعان، والعيون بعيدة، والأسرار قليلة.

الآن تكره أمها التي لم تخبرها، وتكره (معلمتها) التي لم تقدر غربتها، ولا جنسها. وأنها امرأة مثلها، كما سمعت إحدى الزائرات تخفف من غضبها صباح هذا اليوم: إنها مثل كل النساء.. هل نسييت؟!!

إنها تكره كل النساء.. وتكره الرجال.. وتكره الحياة أيضاً.

كانت ليلة عاصفة بالأفكار والتخيلات، بعدما ذهب أصحاب البيت جميعاً في سهرة محترمة، وبقيت وحيدة مكتئبة، واستمر الحزن يسيل من عينيها وجسدها ساخناً معذباً. بكت طويلاً وحدثها وغربتها وخجلها وخوفها من حالها الجديدة. وفكرت بمرزوق.. منتقداً ولكن: هل يقبل بها وهي على هذه الحال؟! وهل يعرف عن هذا شيئاً؟!!

بكت بحرقة وتفجع.. ثم تكوم الحزن، جمداً، تحول ضياعاً ومرارة وحقدًا..

وفتح الباب على غير موعد، دخل صاحب البيت، فانفجرت أساريرها، إنه بشري على أي حال، ولم يكن في ما مضى قاسياً، وليس هذا غريباً، فهو الحاضر الغائب أو المغيب، لا أحد يستمع إليه، أو يأخذ برأيه، أو يعطيه أية أهمية؛ كانت شهلاً تشفق عليه، وتتعجب من وجود رجال بهذا القدر من الإهمال، وتتمنى لو يتسنى لها أو يسمح بمجالسته، فهل هذا هو الوقت المناسب وهي تحتاج إلى من يسمع أو يتكلم؟!!

ناداها.. أمرها، دون أن ينظر إليها بإمعان، أن تحضر طاولة مميزة، مشروباً وطعاماً. حسبت أن ضيوفاً مهمين قادمون، لكن أحداً لم يأت.

كانت تعمل بهمة، متحاملة على كآبتها محاولة إخفاء حالها.

جلس يشرب بنهم، ثم دعاها كي تجالسه، خجلت من تواضعه، وفرحت في سريرتها، أعاد الطلب، ترددت ثم قبلت مطأطئة رأسها.

ناداها: شهلاً! ارفعي رأسك.. لا تخجلي.

رفعت رأسها، كانت علامات السهر والبكاء والعناء بادية، لكنه لم ير منها الكثير، سألها: هل زعلتك (سنتك)؟! لا بأس.. ازرعها في ذقني، أنا سأكلها.. أعدك بذلك..

حاولت أن تصدق، أن تنسى موقعه ومركزه الذي لا يحسد عليهما؛ هي الآن تحتاج أن تصدق، تحتاج أن تتمسك بجمال (العرمط) كما يقول مثل في المسكونة.. التي تبدو الآن غائمة وبعيدة.

-اضحكي.. افردي هذا الوجه!

امتدت يده بكأس الشراب الحاد: اشربي.. روقي وروّقينا!

ودت لو تشرب، لكنها ترددت، أصر.. أقترب منها.

وضع يده الأخرى على رأسها، والكأس على شفتيها؛ أدارت رأسها بقوة، وقعت الكأس وتطاير الشراب، لم يبد عليه الانزعاج، استمر بيده على رأسها، وضع كفه على وجهها، بدأ يتحسسها، حاولت تخليص رأسها من يديه، كانتا قويتين، أين كان يخبيء هذه القوة؟! ورأت في وجهه ملامح عنيدة، حركت يديها، قدميها، انتفضت، ثبّتها بيديه، احتضنها وعصرها، تصوّرت نفسها فرخ الدوري بين يدي مرزوق، بكت، صرخت، أغلق فمها؛ أحست باختناق وظلام واستسلام، بعد أن خار ما تبقى من قوة وهي تحاول منع يده من الحركة نحو الأسفل.

وحاولت أن تقول شيئاً، أن تنبّه إلى حالها، لكن يده التي تطوّقها، لا زالت مطبقة بقوة على فمها؛ وبالقوة ذاتها قذفها بعيداً، بصق في وجهها، وكبّ قنينة الشراب على يده الملوثة بالدماء، ثم ركلها بقدميه وهو يسرع صوب الباب الذي فتحه، ثم أمرها بالخروج قاذفاً إليها أفذع الألفاظ والشتم والصفات. جرها ورفسها فتدحرجت على الدرج المنحدر.

لملمت بقايا نفسها مذهولة، مصعوقة، غير قادرة على استيعاب أو فهم ما جرى.

وللمرة الأولى، وجدت نفسها وحيدة في شارع واسع مضطرب، بدأت تركض في أي اتجاه متناسية أوجاع جسدها المضعف، تنظر خلفها، وتمضي لا تعلم إلى أين، وليست في حال يمكنها أن تفكر إلى أين تسير، حتى لو كانت تعلم، ولكن من أين لها أن تعلم؟! هل هي في شعاب المسكونة؟! السيارات والأضواء تتراقص في عينيها من كل الجهات فتخالهم عيون الجن الذين سمعت عنهم الكثير في الضيعة.

جرجرت نفسها كثيراً، غالبت الشعور بالإعياء والإقياء، لكنها تعبت، وتلاشت أية قدرة على الاستمرار بعد أن تضاعفت آلامها، إلى حد لا يطاق.

توقفت أمام بناء كبير مزين، شاهدت رجلاً يخرج، يلبس لباساً طويلاً، ويغطي رأسه، ولحيته ظاهرة، تراءى لها الشيخ إبراهيم التوفيق، اقتربت منه واضعة يدها على (الكتيبة) التي تذكرتها الآن، ثم تشبثت بها بعد أن تبينت خطأها: ليس الشيخ إبراهيم، لكن يجب أن يكون هو، لم تعد تحتمل أكثر؛ صرخت أمامه، انتبه إليها، توقف، أسرعت إليه، وارتمت على قدميه، وغابت عن الوعي.

حملها إلى داخل البناء المميز، وسلمها إلى إحدى النساء المسنات. وحين وصل خبر ضياعها إلى القرية، كان قد مضى على اختفائها قرابة أسبوعين، وكان له وقع خاص، رغم أنه ليس جديداً تماماً، فقد حدث قبل ذلك لسواها، لكن أثره الآن أعظم، وما زالت التجربتان السابقتان لشهلا مدار حديث.

لم ينم والداها، ذهب أبوها إلى الشيخ إبراهيم التوفيق، وكتب لها من جديد.

وحين وصل مشارف الطريق العام في بداية رحلته الشاقة لإحضارها، بعد مشي مُضنٍ في طريق وعرة، كانت أولى الإشعاعات الرمادية قد بدأت تُنمّش وجه الأرض.

- ٦ -

وصل للتوّ إلى دارها، أحضرت كرسيين من القش، وضعتهما أمام الدار، جلسا قريبين، تكاد تخلو المسكونة في هذا الوقت الصباحي إلا من الأولاد والعجائز والمرضعات والحوامل اللواتي على حافة الوضع.

-المهم أنكِ سلمتِ، وهذا كله بفضل دعائي.

-دعاؤك على عيني وراسي، ولكن لا تنسَ دعاء الشيخ إبراهيم التوفيق.

-وما دخله؟!!

-لقد كتب لي، ولولا هذه الكتيبة، لا يعلم غير الله ما كان سيحدث.

كانت لا تزال في رقبته، معلقةً بخيط كان أبيض في ما يبدو من لونه الكالنج بلا انتظام؛ وكذلك كان لونها مثلثية الشكل مربوطة بإحكام...

قال مرزوق: ولماذا لم يستطع حماية نفسه حين دخل عليه من تنكّر بثياب شيخ غريب، زكّاه، فعرف أين يخبئ ماله، فعافله وسرقه في عزّ النهار، لماذا لم يكتشف الخدعة ويعرف السارق؟! -ماذا تقول يا مرزوق؟! أرجوك لا تغلط بحق المؤمنين.

-طيب، لا تزعلي، أريني هذه الكتيبة!

أخفتها في صدرها، وردت بقوة:

-لا.. لا يجوز..

-فقط سأراها.. ما الذي يمنع؟!!

-أستغفر الله، لا يجوز يا مرزوق، أموت أو أجن إن أخذت مني.

-بعيد الشر، عليّ ولا عليك!

قالت بصوت رقيق:

-من قلبك يا مرزوق!

-ولو! أعطني إياها لأحلف لك عليها!

تأثرت من كلامه، فأطاعته، وسلمتها إليه بعد أن أخرجتها بصعوبة من رأسها.

أمسكها بيده، قبلها، وضعها على رأسه:

-شكراً لك لأنك حفظت شهلاً.. وحميتها وأعدتها لي سالمة..!

انفجرت أساريرها.. ضحكت، نظر صوبها وقال: في هذه المناسبة ألا يطلع لنا عندكم كأس مئة؟!!

-على عيني ورأسي..

نهضت مشرقة لتحضر الحطب وتشعل النار. أمسك (الكتيبة) فكها.. ورقة إثر ورقة إثر ورقة- نظر إلى ما فيها، ضحك.. حتى كاد ينقلب على قفاه.

-٧-

الوقت يمر، والمسكونة تستقطب كل الدورانات حتى دوران الليل والنهار والفصول، دون أن يكون تحت النورج زرع، بل حصى تتلم سكاكينه، وحجارة مختلفة الأشكال تقلقه حتى ليكاد ينقلب، هكذا بدا الأمر لمرزوق الذي ما تزال فكرة الانطلاق تحفر نفقاً في ارتكازه.

كانت شهلاً قد بدأت تطوي محنتها منشغلة عنها بما تطور من علاقة مع مرزوق؛ صاروا متلازمين في الأرض، في القرية، على العين، عند البيدر. لم يكن الوضع هذا مزعجاً لدى أبوي

شهلا أو أبوي مرزوق. فالأولان يأملان أن تعود لشهلا طبيعتها، وأن تنسى ما فات من تجربتها المرة، وتتغلب على مرارتها وحزنها وغصتها لغياب أختها التي لم يكن مناص من إيداعها هناك.

والآخران يأملان أن يؤخر هذا، أو يلغي، قضية السفر من باله.

مما جعل الجانبين يفسحان لهما مجالات أوسع، وأوقاتٍ أوفر للقاء. لكن الأمر لم يستمر كذلك، وبدأ الملل يشاكس هدوءه، وأخذ الشرود من حضورها، بدأت تلحظ ذلك، فحاولت التخفيف عنه بالتقرب منه أكثر.

كان يحدثها عن أفكاره، فتبدي له خوفها، فالوسواس لم يتركها تماماً، الوسواس الذي نخر في عظامها، منذ الخروج الأول، أبعد من حدود المسكونة: وحين اقترحت عليه السفر معاً سوياً، صعب الأمر. ثم وافق بعدئذٍ. على أن يذهب أولاً، ثم يعود إليها، وقد استعد مكاناً وإمكانية لاصطحابها.. حاولت أن تصدق، وقررت بينها وبين نفسها أن تكتب له عند الشيخ إبراهيم. وحين قرر السفر، اضطربت، وأرادت أن تعطيه شيئاً منها.. كطعم القبله التي حدثها عنها وحدثته.

لكنها لم تتوقع أبداً أن يأخذ معه كل شيء.. كل شيء ويمضي..!

الفصل الثاني

- ١ -

لألاءة في البحر المتقلقل تأهباً لإطفاء الجمرة الكونية؛ البحر الذي يبدو من فرجة بين سفحين مخضرين حيث أطراف أغصان الصنوبر مدارج لآلهة خضر تصعد نحو الزرقة.

أصوات ارتطام حجارة بالأرض، أو اختراقها أشجاراً أو اصطدامها بجذع فارغ مسودّ، مع صيحات فوز وآهات خيبة، وأنفاس تتلاحق مستبقة غروباً محتملاً.

-ها.. ها.. أصبتها، هذه هي المرة الثامنة، آه ما أجمل هذا الصوت!

صاح سليم بانتشاء، وإلى جواره واصف ونبيل الذي تدخل على الفور:

-هه.. ما زلت متأخراً عني بإصابتين.

أضاف الثالث بهدوء الواصل:

-لا بأس؛ عليكما أن تتسحبا وتوقرا معركة أخرى؛ أنا سأفوز وأحطم الرقم القياسي.

-أنت، ها.. ها.. ما زلت في الرقم خمسة.

رد سليم، وأردف نبيل ممسكاً حجراً ومترجعاً إلى الوراء استعداداً:

-انتبها، واستمعا جيداً. سنصطم حجرتي هذه برأسها مباشرة؛ لن أرضى غير الرأس.

الأنظار تلاحق المقذوف حتى نهاية مساره:

-ها.. ها لقد ارتطمت بالأرض، وابتعدت عن الجذع أمتاراً.

شمت سليم وتابع مكرراً حركات الاستعداد:

-انظرا! سندوي إصابتي، اسمعا وتعلما كيف يكون التصويب، وكيف تكون دقة الإصابة.

-يا سلام.. لقد ابتعد حجرك أكثر، لم تتعلم من دروس الفتوة إذن!

قال نبيل هازئاً، واستطرد واصف:

-نعم، أسفل ومنتصف الهدف، لكن الإبرة غير واضحة، هه.. سأسدّد الآن، مهلاً، سأضع هذا الكتاب جانباً، هو الذي يعيقني.

كتابان آخران مفتوحان يضطجعان جوار جذع شجرة فتية.

المسافة الفاصلة بين الجمره النائسة باطراد وبين البحر تتضاءل، والوقت ينسرب عبر تناوب الحجارة والأصوات، وانتصاب الهدف/ الشجرة التي أحرقتها تواجدها بين شجيرات الزيتون؛ تلك التي بدأت تظن عن حضورها باخضرارها المزرق.

-آه.. إنها الإصابة العشرون، لقد غلبتكم، هيا نعد إلى الضيعة. أعلن نبيل بزهو، فانبرى سليم:

-لا.. لا زال هناك وقت، سنستمر في اللعبة.

-لن نلحق به يا سليم، لنعد الآن لم تعد الرؤية ممكنة.

ملتقطاً مزيداً من الحجارة رد سليم:

-لا.. لا زال الهدف واضحاً، سأصيبه.

-لن نميز بين إصابته وإصابة الأرض أو أي جذع آخر، هيا يا واصف، انتهت اللعبة.

-أنت دائماً هكذا -ينتهي اللعب حين تحقق الفوز.

-ماذا أفعل لك إذا كنت لا تجيد التصويب يا سيد سليم؟! تدرّب يا أخي، وغداً موعد آخر.

-ألا تتعبان من المنافسة، حتى في هذه اللعبة السخيفة؟!

تساءل واصف، فأجاب سليم:

-سخيفة؟! ولماذا تلعبها إذن؟!

-كي لا تزعلا، أما أنا فسيان عندي أصبته أم لم أصبه.

-المشكلة أنه لا يعرف كيف يسدد إلى أسفل ومنتصف الهدف.

قال نبيل موجهاً كلامه إلى واصف متجاهلاً سليماً الذي سخر:

- ما شاء الله أنت أدري!

- فهقهة تعالت من خلف أكمة تخترقها طريق ضيقة، لا تلبث أن تظهر فوقها قامتان طويلتان وكتابان على خصريهما. قال جمال:

ها.. ها.. كيف تسدون إلى مكان لا تدرّون ماذا يوجد فيه؟!

أسفل ومنتصف الهدف؟! هذا يحتاج إلى واحدٍ مثلي خبر هذه المنطقة، ويعرف كيف يسدد ويصيب.

توقف سمير الذي يسير أمامه:

-نحن هنا يا جمال بك، لست وحدك من يعرف ماذا يوجد، وكيف يسدد.

-لكن معرفة عن معرفة تختلف؛ الخبرة يا أخي الخبرة، هل يمكن أن تساوي من خاض حروباً كثيرة، وأطلق عدداً كبيراً من الذخائر الحية، على أهداف حقيقية، بمن لم يحضر سوى بضعة دروس تدريبية؟! ولم يطلق سوى بعض الطلقات الخلية؟!!

-لأ يا جمال! لا تجعلنا نكشف (البير وغطاه). وخلصنا أصحاباً!

-حتى أنتما؟! ألا يكفي هذان الضران؟!!

صاح واصف حين وصول سمير وجمال الذي قال هازناً:

-أما انتهت المباراة بعد؟! أم أن هناك وقتاً إضافياً؟!!

-من نال الكأس منكم؟!!

استطرد سمير باللهجة نفسها. وأردف جمال:

-الفائز سيشتريك في الألعاب الأولمبية!

-لأ يا جمال، هذه اللعبة غير مسجلة في سجل الألعاب الأولمبية الرسمية.

-نعتبرها على هامش الألعاب، ونرفع اقتراحاً بإضافتها، هل "الهوكي" أحسن منها؟! نحن نلعبها ونسميها "التكروعة" ليس المهم الاسم؛ المهم اللعب، والأهم الفوز، والشباب، ما شاء الله، أبطال ويستحقون التشجيع.

-أتضحكان؟! أراهن أنكما لم تقرأ حرفاً واحداً.

رد نبيل، وتابع سليم:

-وأراهن أن سعاد الراعية لم تُعزّ أياً منكما اهتمامها، ضحك جمال:

-في الواقع سألتنا عنكم .. معها حق، من تفكر في مثل طولك، كيف سترانا يا حسرتي؟!!

قال نبيل:

-نحن نتحدث عن الدرس، ما دخل سعاد!! اتركوا المخلوقة بحالها.. هي وتيسير متحابان ومتفقان على الزواج فور أن يتسرح من الخدمة الاحتياطية..!

رد جمال:

-تحب تيسير؟! هه.. لا تصدقهن!! اسألني أنا!

فتدخل واصف:

-دعونا من هذا الكلام الآن.. وخلصنا في حديثنا!

المهم أن ألا يزعج أحد فالنتيجة تعادل، هيّا نرجع، تأخر الوقت.

-اقتعوا هذا الخائب أن المباراة انتهت، فسواد الهدف ذاب في السواد المحيط، والأنوار الكاشفة معطلة، وهذا عذرٌ قانونيٌّ لإيقاف المباراة. لكن السيد سليماً لا يقتنع.

أردف واصف قاطعاً الطريق على رد سليم، واستمرار الجدل، ومنطلقاً في المقدمة:

-هيا يا سليم، خذ كتابك كي لا تلحقه البرودة فيصاب بوجع البطن.

-نسقيه زوفا ونعناعاً.

أجاب سليم وهو ينحني لينتقط كتابه، فأضاف نبيل، الذي سبقه إلى ذلك، ومضى خلف واصف:

-هذا عليّ، أسقيه وأسقيكم هذا وغيره إذا رغبتم أن نلتقي عندي هذا المساء.

-كل شيء يجب أن يكون لك أو منك أو عندك!

-لا تكبرها يا سليم، الرجل يدعونا وهذا لطفٌ منه.

تدخل سمير الذي بدأ يدبّ على الطريق خلف نبيل وخلفه جمال، في حين توقف سليم في آخر الرتل حانقاً:

-يعني أنا لا أدعوكم؟!

التفت جمال إلى سليم:

-أخي، هو من وجّه الدعوة، وهذه ليست أول مرة يدعونا ونذهب.

-وها أنا أدعوكم الآن، وأنا لن أذهب إلى عند نبيل، هذه المرة السهرة عندي.

-إذن حضّر لنا خبزاً وزيتوناً وبصلاً. ونحن قادمون.

أمسك سليم بكتف جمال الذي كان يمشي أمامه مباشرة:

-ألأن السهرة عندي صار فيها عشاء؟!

-هل نطلب دجاجاً أو خروفاً؟!

رد سمير ملتفتاً إلى الخلف رافعاً صوته:

-لا.. لا تصدّق يا سليم. لا نريد إلاّ المتّة!

وتابع غامزاً بعينه مخاطباً جمالاً:

تعشّ في بيتكم يا أخي، ولا تنسَ أن وراءنا مسائل هامة ومراجعات، أليس كذلك يا نبيل؟!

ولكز نبيلاً في خاصرته فأجاب:

-أنا أحثّج، ولن أذهب معكم، أنا دعوتكم أولاً.

قال جمال:

-لا بأس يا نبيل، كرمى لخاطر الشباب، اليوم عنده.

-لا أدري إن كان يمكنني الحضور.

-من أين نأتي بحجة المسائل إذا لم تحضر؟!

-موافق يا سمير شرط أن يحضر واصف:

رد واصف من أول الصف المتعرج أفقياً وعمودياً بفاماتٍ غير منتظمة التدرج:

-إذا كانت الظروف مواتية قد ألتحق بكم.

تدخل سليم على الفور، وبصوت عالٍ:

-في البيت أم خارجه؟

-لا تظلمني يا سليم، كرمى لهذا الكلام سأذهب مع الشباب.

-إن اأكمل النصاب، لا تحلو السهرة حقاً، ويطيب الحديث إلا إذا كنا مجتمعين!

قال جمال منشرحاً، فقاطعه سمير هامساً متلفتناً حوله:

-أي حديث يا فهيم؟! قل لا تطيب القراءة والمراجعة، ألا تخشى أن يسمعك أحد؟!

-أقصد الحديث في العلم والأدب!!

علتُ قهقهات مدوية تدرجت تسبقهم، وهم يدبّون على الطريق الوعرة المنحدرة صوب المسكونة.

- ٢ -

دخانٌ يُضَبُّبُ الفسحة الواسعة، ويغطي السقف، بعدما عجز عن إيجاد فراغات جديدة يتغلغل فيها، ويتوزع في الزوايا المتباعدة المظلمة؛ حتى الأعمدة الخشبية الواصلة بين الأرض المتربة والسماء الخشبية باتت غير منظورة، والاصطدام بها، لمن يريد التحرك، احتمالاً أكيد.

السراج يعتصر سائله مجهداً، كي يؤمن ضوءاً يدل عليه على أقل تقدير، بعدما كان يخنقه الدخان. الدخان الذي تنفته مدفأة حطب مثقبة مفتوحة المؤخرة لعدم كفاية طولها لعيدان الحطب التي لم تجف بعد.

-انتبه للنار يا سليم.. الدخان يخنقنا!.

صوت رجولي مدخّن تردد من إحدى الزوايا الضائعة في جهة ما، كأنما صوت استغاثة، عبر سعلات متلاحقة متواترة تحوم حول الأذان المشرعة لرؤوس متقاربة، وعيونٍ مفتوحة رغم الحرارة، وأنفاس حارة محمومة.

- ستشتعل، الآن عبّأتها..

ردّ صدر من أحد الرؤوس دون أن يتغير موقعه أو اتجاهه، معيداً السيرة إلى مجراها:

- إي.. سمير، ماذا فعلت؟! ماذا قالت؟!!

- سبّنتي، ضربت يدي وركضت.

- وأنتَ ماذا فعلت؟!!

- لا شيء!!

قال نبيل:

- كيف لا شيء.. أما خجلت؟!!

- خجلت؟! لماذا أخجل؟! بقيت واقفاً أنظر إليها مبتسماً إلى أن وقفت!

سأل سليم بدهشة:

- ووقفت؟!!

- نعم ووقفت غير بعيد ونظرت نحوي!

تساءل نبيل بانشده:

- أما خفت أن تصرخ، أو تضربك بالحجارة؟!!

- أنتم جاهلون! أخاف؟! يا سيدي كانت تتمنى أن أتبعها إلى الحرش القريب، لكنني لم أنظر إليها، وتركتها ومشيت.

- يا الله.. مشيت؟! هل هذا معقول؟! ما أجراك يا سمير!

قال سليم ذلك، وهو ينظر بإعجاب وحسرة إلى وجه سمير الذي رفع رأسه:

- هذه قضية بسيطة لماذا تكبرونها؟!!

تدخل واصف:

- هل هذا يعني أن لديك قضية أكبر منها؟! قلها الآن.. قلها.. أو نقول أنك تضحك منا؟!!

- لا.. نحن لم نشترط أن نقول كل شيء، أو أهم شيء، بل أن نذكر حادثة فيها رائحة المتعة، وها قد أخبرتكم وأديت واجبي، وانتهى دوري. فسارع واصف متهرباً:

-جاء دورك يا نبيل!

-لا، أنا ليس عندي شيء.

أصر سليم:

-لا تهرب، نحن في جلسة مصارحة، سيحكي كل واحد منا شيئاً من تجربته.

-ماذا أحكي إذا كان لا شيء عندي؟!

أكد سمير:

-لا يجوز.. لا يمكن، هناك شيء ما.. احكِ!

-يا شباب، من عنده ليحك! أما أنا فليس عندي شيء.

قال جمال باستهزاء:

-أنت شاطر في الصف، والبنات يَظَلُّن حولك.

-يسألونني عن أمور الدرس.. لا شيء غير ذلك!

-وتغريد؟! انقضّ سليم، لا بل زهرة وسعاد؟!

-تغريد؟! زهرة؟! ما بهما.. وسعاد أيضاً؟!

قال سمير بلطف:

-نبيل! سنزعل ونرحل ها.. هل تستمع إلينا فحسب؟! هل جننا لنعترف أمامك؟!

-يا شباب، هل أقسم لكم؟! ليس عندي شيء مهم؟! مجرد اهتمام!

تساءل جمال ضاحكاً:

-اهتمام؟! ، أبرقت وستمطر..! منك أم منهن؟!

-إذا كن مهتمات، أنا ليس لي علاقة، اسألوهن!

فسأل واصف:

-وأنت.. ألسنت مهتماً؟!

-لا.. الاهتمام منهن، أنا غير مهتم بأحد.

عاد جمال إلى التساؤل بطريقة ساخرة:

-كيف عرفت أنهن مهتمات؟!

-كلما نظرت إلى إحداهن أثناء الدرس، أو في الطريق، أجدّها تنظر إليّ، لو لم تكن مهتمة، لماذا تنظر إليّ؟!

ضحك سمير:

-ولو لم تكن مهتمة، لماذا تنظر إليها؟! ألا تعترف الآن؟!

-طيب، افرحوا، ها قد أخبرتكم ما عندي، الدور على من الآن؟!

-مسكين يا نبيل، الله يحسن إليك! نطق جمال هازأ رأسه ملتفتاً إلى سليم:

-الآن دورك، بيّض الفأل قليلاً.

-أنا صاحب المضافة، أتركوني للأخير.

-لا.. ختامها مسك، أعتقد أن فينا من عنده مسك أكثر منك، غمز واصف إلى جمال الذي يرفع رأسه مفخراً. فرد سليم:

-وأنت، لماذا لا ترينا ماذا لديك يا دون جوان!

قال نبيل بارتياح وثقة:

-لا تخف، دوره قادم، ولكن حكمت المحكمة أن الدور دورك يا سيد سليم، فلا تخالف القرار.

-أنا ليس عندي شيء.

-هُو.. هُو الأفضل أن نترك السهرة ونمشي، تأفف سمير واضعاً يديه على ركبتيه متأهباً للنهوض.

فاعترض نبيل:

-لا والله لا أحد يتحرك من مكانه، ما زلنا في أول السهرة، واستطرد واصف:

-هات خبرنا يا سليم، لا تزغّل الشباب.

-يا شباب لا يوجد شيء، هل أحلف لكم؟!

تساءل جمال ساخراً:

-وهل كل واحد يحلف نصدقه؟! قيل للكذاب: احلف! قال: جاء الفرج؛ لا بد أن تحكي شيئاً، وإن كان كذباً.

-لا، لن أكذب، حدث معي أمر، ليس لي فيه يد، كان مصادفة أو إجبارياً.

علق سمير:

-إجباري أم احتياطي.. كله عسكرية.

لا يهم لن نؤاخذك على فعلتك، ما الذي حدث؟!

عاد الصوت المخنوق من أعماق الظلمة والدخان، كأنه قادم من مجاهيل الحياة البدائية لكنه صوت نسائي هذه المرة:

- (الصوبية) يا سليم، لماذا لا تشعل النار يا ابني، الدخان يخنقنا، ألا تسمع سعال إخوتك وأبيك؟!
-ألا تنامون أنتم؟! ستشتعل، ماذا أفعل لكم إذا كان الحطب طرياً ورطباً؟! لماذا لا تحضرون حطباً يابساً؟!

أضاف الصوت الرجولي الواهن:

-افتح الباب قليلاً، غير الهواء، نكاد نخنق.

-سأفتحه، سأفتحه.

والتفت سليم إلى زملائه:

-ابلعوا ريقكم، وخذوا نفساً عميقاً.

قام إلى الباب الخشبي السميك، فتحه، فارتج بصوت قوي. ثم عاد إلى مكانه بتناقل، فحثه سمير:

-إيه، تكلم يا سليم، ما قصتك؟!

وألح واصف:

-هل وجدتها حجة؟! احك خالصنا..!

وتابع نبيل:

-لنر ما هي هذه القصة التي تتفاخر بها، هه.

-أنا لا أتفاخر يا نبيل بك. ولكن إذا قارنتها بقصتك، يمكن أن أرفع رأسي. تأفف جمال:

-يا الله يا سليم، انطق هذه الجوهرة!

-وجدتها أمامي، لصقي تماماً، لا أعرفها، ولم أر وجهها، ولم أخترها؛ الازدحام هو المسؤول عن كل ذلك، كيف وصلت إلى هناك؟! لا أدري.

نظرت حولي، بحثت عنكم، لم يكن أحد منكم بجانبني، وكانت أمامي، وبطولي تقريباً؛ الضغط متواصل علي من الذين هم خلفي وإلى جوارني؛ الخروج من الزحمة مستحيل لو فكرت بالخروج. حتى حين رغبت ذلك، بعد أن لسعتني رطوبة لزجة في سروالي، كان الأمر مستعصياً. وبعد لحظات لا أدري طولها ولم تتحرك خلالها متراً واحداً، أمام باب السينما. الخوف والدهشة والحيرة والنشوة تدافعت على إحساسي، ثم تضاءلت، وبقيت رهبة وخيبة ورغبة في الانفصال عن الصف، والانكفاء إلى الخلف، بعدما تلاشت أية نية في حضور الفيلم، دون النظر إلى أمر المدير والأساتذة المرافقين، أو الخوف من عقابهم؛ فلا أحد يستطيع مراقبة

كل هذه الأعداد، والتأكد من الحضور أو عدمه بين تلامذة جميع مدارس المنطقة الذين أحضروا لمشاهدة فيلم "المخدوعون". لكن كل الرغبات انطفأت وما عاد ممكناً سوى الاستمرار في الزحف والتقدم والوقوف حتى أُخرج، "المخدوعون" من قلب الصهريج!

-وهي، ما كان رد فعلها؟! ألم تسبّك أو تضربك؟!

سأل واصف وعاد فمه مفتوحاً.

-لا أدري، خفت أن تنتظر إلي، لم تفعل، لكنها احمرت، أذناها احمرتا، وكذلك مؤخرة عنقها، وردت شعرها مراراً، لكن لست متأكداً إن كانت رأنتي، ولم ألمس منها أي نفور.

-من حسن حظك أنها لم تنتظري!

علق جمال وأضاف سمير:

-لو نظرت لأصابها ما أصاب "المخدوعين".

قال واصف:

-وماذا أصابهم؟!

رد نبيل باستغراب:

-أنت أيضاً لم تحضر الفيلم؟!

-لا.. بل حضرته، لكن لم أر نهايته!

أضاف سمير:

-أما أنا فلا أعلم ما رأيت منه، كانوا يدخلوننا دفعات كبيرة؛ أفواج تدخل وأفواج تخرج، في البداية، في الاستراحة، في النهاية، لا أحد يعلم.

أضاف جمال:

-ولا أحد يشرح؛ لذلك أنا لم أدخل، ولم أخرج.. وبقيت في السوق.

قال واصف:

-يبدو أنني حضرت الجزء الأول.

أضاف نبيل:

-وأنا حضرت الجزء الأخير.

وتابع سمير:

-وأنا حضرت الجزء الأخير..! سيدي، ليست مشكلة، المهم النتيجة، أليس كذلك يا سليم؟!

ضحك وقهقهة وأطراف دافئة حامت في الفضاء الذي تضاءلت كثافة دخانه، وبدأ البرد يغزو ذراته وموجوداته، لكن دفء الحديث وتوهج المشاعر جعل الإحساس به مرجأً. تنهيدات ونظرات تساؤل وقلقلة، ولحظات غائمة متوترة، إلى أن قال سليم وعلائم الانسراح بادية على وجهه:

-والآن دورك يا واصف..

-أرجو أن تعفوني من الحديث.

وأضاف وهو يهم بالنهوض:

-عليّ أن أذهب.

اعترض جمال:

-لا.. هذا بعيد عنك.

-أحلف لكم.. أنه عليّ أن أذهب، طلبوا مني ألا أتأخر، ووعدتهم.

قال نبيل:

-السهرة في أوجها، لن تذهب قبل أن تحكي.

-لا شيء لدي لأحكي، أحلف لكم!؟

قال سمير ضاحكاً:

-لن نصدقك.

-سأتعرض للعقوبة إن تأخرت أكثر من ذلك.

استطرد جمال:

-لا بأس، هذه السهرة لا تقوّت، قل لهم أن المسائل كانت صعبة، واحتاجت وقتاً طويلاً.

تعالت ضحكاتهم من جديد، ما عدا واصف:

-أبي لا يهم أن تحل المسائل أو لا تحل، المهم أن أعود باكراً، وأكون تحت قبضته.

وقف، وهم بالتحرك، فاعترضته الأكف والأيدي والأجساد، وقال سليم بإصرار:

-لن تذهب قبل أن تحكي.

-لا شيء لدي، أنتم تعرفون ظروفني.

أكد نبيل:

-هذا ليس عذراً، سنقول لنا شيئاً عن تجاربك.

-تجاربتي؟! ليس لي وقت، ولا نفس.

-هناك من رآك.

غمز سمير صوب جمال.

-أنا؟! أين؟! مع من؟! كذب.. كذب!

تدخل جمال بثقة:

-مهلاً يا واصل بك، إذا لم تحك، أحكي أنا ها.

-ماذا تحكي؟! ماذا رأيت لتحكي؟!!

-ماذا كنتم تعملان في بيت أبي محمود الذي لم يسكن بعد؟!!

-أنت رأيتنا؟! متى؟!!

-منذ يومين فقط يا دون جوان؟!!

-وما دخلك أنت؟!!

تدخل سمير:

-ها.. ها.. جاء من يعرفك يا.. هات أخبرنا..

قال واصل وهو يجلس بامتعاض:

-لم يحدث شيء.. كلام فقط.

أضاف جميل مستفزاً:

-كان شعرها منوشاً، وشعرك كذلك، هل قبلتها؟!!

-لا.. لا.. معاذ الله! وضعت رأسي على صدرها فقط.

-الأزرار مفتوحة أم مسكرة؟!!

-مسكرة.. مسكرة، ماذا تقول؟! أنت مجنون!

أضاف سمير:

-لابأس.. لا بأس.. رأسك أم وجهك؟!!

-بل وجهي، ماذا تريدون، وجهي وفمي وأنفي وذقني وعيناي، على صدرها المفتوح، شعري

على وجهها، ماذا تريدون بعد؟!!

-مَنْ..؟! زهرة؟!!

قال سمير بهدوء:

-لا.. يا سليم، زهرة قصة أخرى..

رد نبيل:

-نحن لا يهمنا.. ولا نريد إلا الاعتراف!

-افرحوا.. ها قد علمتم، ولكن والله إن سمع أحد بهذا الكلام، سأفضحكم جميعاً.

تساءل سليم ضاحكاً:

-ماذا ستقول عني؟! ستشكوني إلى والد تلك الفتاة؟! بالله عليك لا تفعل..!

وأردف نبيل:

-لا داعي لهذا الكلام، نحن في جلسة سرية، ولا أحد يمكن أن يتحدث بأي شيء، فأقدمنا كلها في الفلقة معاً.

علق واصف:

-من يسمعك يقول أنك (قاطع السبعة وذمتها).

وتابع سليم:

-أو أنه طالع لعمه مرزوق.

-ماذا تقصد يا سليم بك؟! لا بأس نحن في بيتكم!

سارع واصف إلى القول حائلاً دون وقوع شجار وشيك:

-كيف لو كنت مثل هذا الشقي!!

غامزاً بعينه صوب جمال، واستدرك سمير ماطاً الاسم

-جاء دورك يا جم...ال...

أضاف سليم متجاوزاً اغتياظ نبيل.

-بل قل جاء بطل الفيلم.

-آه أيها الرؤساء، أهذه قضايا تحكى؟! أهذه مغامرات يهدر الوقت في سردها؟! والله إنني خجل عنكم، إن حل المسائل أجدي من سماع مثل هذا الكلام، أليس كذلك يا نبيل؟!!

-برهن لنا يا صاحب الجمال و "الفتوة"، برهن على ما تقول.

-سأبرهن، أنتظن أن ما من أحد يبرهن سواك؟!

تدخل سمير منزحاً:

-نراك متردداً، هل ضاعت البراهين والأفكار؟! أم تحضر قصة تدعيها؟!

-بل أخل أن أتكلم أمام هؤلاء الأغرار، ماذا سيحدث لكم؟! أنا غير مسؤول عنكم.

احتج واصف:

-إذا بقيت هكذا سترجو أن نبقي لتحكى، قوموا (شباب)، لا نريد أن نسمع.

تدخل سليم على الفور:

-لا.. لا.. لا يجوز، سيحكى؛ أرجوكم دعونا نسمع: الرجل يتدل قليلاً، لا بأس بذلك، احك جمال، احك.

-ماما تريدك.

هذا ما قاله الصبي، كنت أحاول أن أحضر الدروس، الوقت مساء، والطقس شتاء، ذهبتُ دون أن أفكر كثيراً؛ ربما تريد أن أساعدها في شيء تريد نقله أو حمله، وربما تود كتابة رسالة إلى زوجها الغائب.

دخلتُ، رحبتُ، ثم اغتسلت، ودعتني أن أساعدها في غسل ظهرها، ثم ببساطة جرت الأمور، دهشتُ في البداية، وانصعقتُ، وحاولت الهرب لكن المفتاح لم يكن في الباب، ولم أحاول الصراخ، فلم الفضيحة؟!

ثم هدأتُ، لم الهرب؟! إذا كانت النعمة قد هبطت عليك فجأة؟! وكل شيء يمكن أن يجري بسهولة، وإرادتها؟!

سأل نبيل بفم مفتوح:

-هكذا، ببساطة؟!

-نعم، بأبسط مما توقعْتُ، أو تتوقعون، الذي اكتشفته أن الأمر هين، وفي غاية البساطة، ولا يحتاج إلا إلى جرأة وشجاعة.

سأل سمير:

-من هي؟! سهلاً؟!

لكزه واصف هامساً مشيراً إلى نبيل:

-ألا ترى هذا هنا؟! ألا تعرف قصتها مع عمه.

-أعرف، أعرف، وهل هي حق شخصي؟!

تدخل سليم:

-بماذا تتهامسان؟!!

ثم نظر إلى جمال، وتابع ممعناً في استفزاز نبيل:

-بالله عليك أليست سهلاً؟!!

-لا.. لن أقول لكم حتى لو انفلقتم، وخاصة أنت يا سمير.

سأل واصف:

-وهل تكرر الأمر؟!!

-هه.. هل تحققون معي؟! إلى هنا يكفي، حكيت لكم أول التجربة، الباقي لي أنا، حقوق النشر محفوظة، ألم تقرأوا هذا؟!!

قلب الكتاب الذي في يده إلى العبارة المكتوبة على الغلاف الأخير، ثم تابع:

-ماذا تقرأون إذن؟! إن شاء الله تقرأون ذنوبكم.

ثم استرخى منتشياً على قعادة من ثياب عتيقة.

اخترق غيمة النشوة وموجات الإثارة صوتاً ساعل:

-هلكننا من البرد، كأننا ننام (براً)، أغلق الباب وأشعل النار يا سليم، بماذا أنتم مشغولون؟! آه؟! سأغلقه أنا!

-لا.. أنا سأغلقه.

-أغلقه وراءنا!

قال جمال جامعاً كتبه ناهضاً بامتلاء، فاعترض سليم:

-لا.. لا يمكن، لا زال الوقت باكراً.

أضاف نبيل واقفاً مبدياً قلقاً واضحاً على وجهه وحركاته:

-تأخر الوقت فعلاً.. يجب الذهاب.

نهض واصف بتناقل وسأل سمير:

-هل تذهب إليها؟!!

فاستطرد سليم ضاحكاً:

-إلى أين؟! إلى مشفى الأمراض العقلية؟! ما الذي فعله لك لترسله إلى هناك؟!!

رد جمال بثقة:

-لا تتدخل في ما لا يعنك.. تر ما لا يرضيك!

رد سمير:

-أتوصلنا إلى منتصف البئر وتقطع الحبل بنا؟!!

-رزقكم في السماء.. وما توعدون!!

- ٣ -

تشمّر غابة المسكونة عن أطرافها التي تتآكل باطراد، حيث يقوم أصحاب الأراضي المتاخمة باستباق الزمن والقدرة، فيزرعون مساحات منها، وهي على حالها المحرّشة، بكتلات الزيتون التي تضيع سنين قبل أن ترتفع قاماتها، وتأخذ أمكنة لها بين جاراتها الحراجيات، دليلاً على حق زارعيها المشروع في الأرض التي احتضنتها، وإثباتاً على أن عملهم، فيها، بعدئذٍ، ليس سوى تنظيف روتيني لما بين شجيرات الزيتون، كما في الأراضي الأخرى.. هذه الحجج التي لا يحتاج مراقبو الحراج لأكثر منها للاقتناع بذلك ورد دعاوى المخبرين، وإن كان الأمر لا يخلو من أعباء ومتاعب ومخالفات.

وقد تساعد البهائم أصحابها في ذلك، فتمهّد لهم الطريق في قضم الشجيرات الحراجية وتخفيف التشابك، وتأمين الممرات بينها، وهي تحشر فيها منعاً من اقترابها من الأراضي المزروعة والمشجرة حديثاً، وخوفاً من ضياعها في شعاب الغابة. وتساهم الماعز بجديّة في ذلك، هي التي تستطيع القيام بأخطر الأعمال، مما يجعل من ارتيادها الغابة، أو إطلاقها للرعي، مجلبة للمخالفات، ويحتاج مجرد اقتنائها إلى رخصٍ تجدد (بكوشان) يسلمه (التحصلدار) إلى أصحاب البيوت التي يزورها سنوياً، وتهرب منه الأعداد الزائدة عن القيود دون مشقة.

أولاد في صفوف مختلفة يتابعون الرعي، وقد يحملون كتباً مدرسية، ورجال وهنت قدراتهم عن متابعة طقوس الاستصلاح والزراعة، فيرافقون دواب متنوعة في رحلة يومية لا تخلو من فائدة. وقلة من الراعيات يشاركن في العملية حين الضرورة؛ وسعاد واحدة منهن بل هي أشهرهن، فقد استعصت على محاولات الخدمة في منازل الأثرياء في مدن عديدة، داخل الحدود وخارجها، بعد أن أخرجت من المدرسة ككثيرات غيرها، وقد عادت أكثر من مرة، بعد توقيع العقد، وقبض بدل خدمتها السنوية، لكنها لم تكن تترك والدها يفرح بحصاده، وينتهي من التحضير لمشروعاته التي يأتي تأمين مونة (العرق) في مركز مهم منها، رغم الادعاء، كما سواه، بأن ذلك ليس إلا لتأمين إمكانية متابعة الأبناء الذكور الدراسة، وقبل أن تنتهي أمها من كفاية دموعها حزناً عليها، يجداها أمامهما سالكة طرق وصول عجيبة ومحظوظة. وبعد اليأس من جدوى اقتناعها، استلمت مهمة الرعي، تاركة لأبويها الأعمال المجهدة الأخرى، ولإخوتها متابعة التعلّم. وراضية عن تطور علاقتها مع تيسير من حب طفولي إلى عشق وإحساس بالحاجة والأمان إلى ارتباط شفوي بانتظار تسريحه من الخدمة العسكرية الذي طال أمده. وكان

يطيب للكثيرين ممن يذكرون سعاد أن يذكروا بشهلا، وأنها سارت على خطاها، وكان هذا
يزعج أبويها أيما إزعاج. أما هي فكانت تقول: أنا سعاد، وهي شهلا، عافاها الله.
ولم تنس أن تكون حذرة أثناء لقاء تيسير، وأن تحد من فوران العواطف والرغبات لكليهما خلال
وداعه بعد كل إجازة.

والقارئون الشبان الذين تجاوزوا فترة الرعي، وهم من كانوا في صفوف الشهادة على الغالب،
يطوفون الغاية قراءة وابتعاداً عن وجوه الآباء المهتمين بقضية التعلم، تعويضاً عن فرصهم
الضائعة، وإيماناً بضرورة إبعاد أولادهم عن عيشة الشقاء والعبث التي واجهتهم، ومنهم من
يفكر بطريقة تجعل من تصوره والداً لأستاذ أو ضابط أو مسؤول، دافعاً بغض النظر عن أية
أعمال يمكن أن يقوم الأولاد بها.

ويمكن لهؤلاء الطلاب أن يقطعوا دروب الغابة مرات، وأن يبتدعوا دروباً جديدة محوِّمين حول
الجهة التي توجد فيها سعاد ورفيقاتها، قبل أن يلتقوا نهاية كل نهار في طريقهم إلى القرية.

- ٤ -

-إلى أية صفحة وصلت يا نبيل؟!

سأل سمير، بينما كان الزملاء الخمسة آييين عبر طريق ضيقة تكاد تسدها أغصان الشيحان
وأشواك البلان، والغروب الربيعي يورّد الأفق الغربي، ويثري الفضاء القريب بروائح ورغبات
وأمال تُبقي ((المُراجعين)) في حالٍ من التحقُّز والقلق.

أجاب نبيل بتلقائية:

-إلى الصفحة المائة والخمسين..

نظر سمير في كتابه المفتوح ثم التفت إلى نبيل بانسراح:

-وأنا كذلك، تصوّر أن مُراجعتنا واحدة.

تدخل سليم من خلفهما مخاطباً سميراً:

-يا ويلك من الله، منذ قليل سألتك فأجبتني أنك لم تصل إلى المائة. هل تقلّب الصفحات لتلحق
بنبيل؟!

أجاب سمير منفِعلاً:

-لأ، يا سليم بك، أنا لا أحتاج ذلك، أتظن أن محي سميك مثلك؟! أنا أفهمها على الطائر.

-بالفعل، هذا واضح، وهذا ما قاله لك المدير.

-وهل كل ما يقوله المدير كلام منزل؟! ألا تعرف ما وراء كلامه؟! ألا تعلم أنه يغار مني
ويخافني؟!

-في الحقيقة هو خائف من أن تستلم مكانه!

-لأ يا سيدي، هذا المكان لحضرتك.

-يا رجل فهمنا: جمال قال لأحد أبناء قرية المدير أنه رآه يحمل كيساً من حبات الزيتون على ظهره، فامتعض منه، أما أنت فما الذي بينك وبينه؟!

ضحك جمال مقترباً من الخلف:

-ألا تعرف.. كأنك لست معنا في المدرسة ذاتها؛ يتنافسان على زهرة.

-ما شاء الله، اللهم زد وبارك، نبيل يقول أنها تنتظر إليه، وواصف يدعي أنه يلتقيها في بيت خالته، والمدير يغار من جنابك من أجلها؛ أليس في الصف سواها، ألم يبق غيري؟! أليس لي حصة فيها؟!

-نسيتني يا سليم، سجل لي دوراً.

تدخل نبيل:

-اسكت أنت يا جمال! هذا مال الدراويش، حصتك واصله إلى حلقك..

وأردف ملتفتاً إلى سليم:

-هل هذا حسد أم ضيق عين؟!

-بل شماتة، إذا دخل المدير في الميدان، ماذا يبقى لكم يا فئران؟!

-انتظر إلى الغد يا سليم، أنا سأوصلها إلى المدير، قول عنه (قط) أه؟!

-لا يا سمير، أنا لم أقل ذلك، بل قلت عنكم: فئران.

-أرأيت من هو الفأر؟! لقد خفت منه لأمر بسيط، أما أنا فأجابه كالكندّ للكندّ، وتريده ألا يغتاظ ويغار مني؟!

-وهي، ما هو رأيها؟ هل تنتظر إليك وتترك المدير؟!

-يا سليم بك، هل هذا سؤال؟! هل يمكن أن ينافسني أحد؟!

ثنى مرفقيه ورفع القميص عن ساعديه:

-انظر إلى هذه العضلات وهذه الفتوة، المرأة تحب الرجال الفرسان، وما يهمها إن كان مديراً وشكله كجرادة، كما هي حال بعض الناس هنا..

تدخل نبيل قبل أن يأخذ الجدل طابعاً شخصياً:

-المسألة يا سمير ليست قضية مدير وزهرة، المسألة مسألة مصير؛ أنت لا تقرأ للمدير، أنت تقرأ لنفسك لمستقبلك، ولا يفصلنا عن الامتحان سوى أيام.

توقف سمير مواجهاً نبيلاً، وقال:

-انظر إليّ يا نبيل، أنا أحترمك، وأنت تعرفني، وأنا لا أقصدك بكلامي؛ إذا كان من أجل زهرة، والله أتركها لك، إذا كنت متأكداً أنها ترغب بك، أما أن أتركها لتذهب إلى المدير أو سواه، والله أنا لا أرضى أبداً، ولن أنتازل مهما كان الأمر، وأنا متأكد من إمكانياتي، ومن مشاعرها نحوي.

في هذا الوقت التحق بهم واصف الذي تابع الجزء الأخير من الحديث، فعلق:

-نبيل لا يقصد ذلك، يا سمير، بل يقصد..

توقف سمير والتفت إلى واصف مقاطعاً:

-يقصد أو لا يقصد، أخي أنا لا أقدر أن أفكر مثلكم، وأن أدوّب جسمي في الدراسة. أخي إذا صار ما صار، العسكرية لا توقّر أحداً.

-لكن إذا ذهبت إلى العسكرية بشهادة، أليس أفضل من أن تذهب دون شهادة؟!

-كله مثل بعضه؛ لأ، يمكن أن تكون العسكرية بلا شهادة أحسن؛ بالله عليك من أين شهادة عمك مرزوق؟!

همس سليم: من مشفى الأمراض العقلية.

رد نبيل بعصبية دون أن يفهم تماماً ما قاله سليم:

-ماذا قلت يا سليم بك؟! على كل حال رجل مثل عمي مرزوق لا يحتاج شهادتك، هذا رجل لم يكن يوجد علم على دوره، وكانت الشهادات محصورة بأبناء الإقطاعيين والتجار. كل مجايليه في هذه المنطقة لم يتعلموا في المدارس، الله يكثر خيرهم، اجتهدوا وتعلموا ما تعلموه بأنفسهم، وبجهد ذاتي.

قاطع سمير:

-أخي العسكرية عسكرية إن كنت ضابطاً أم لم تكن، وحين تحين الساعة لا فرق بين عسكري وضابط أو بين حامل شهادة أو سواه.

تابع سليم:

-هذا كلام صحيح، حتى الذين استشهدوا من جوارنا منهم عز الدين العسكري، ومحمود الملازم، وآخرون.

-لا تقوّل على الرجل، وتجعله يغيّر فكره.

-لا.. لا تخش عليّ يا واصف، أنا لا أغيّر فكري، وهل من المعقول أن هذا الأمر ليس في بالي، أو أنني لا أفكر فيه، يا سيدي صدّق أو لا تصدّق أننا لها، وهذا الأمر لا يخيفنا، ولم يحن الوقت لننسى.

-لقد كان أمراً يرفع الرأس، كان الناس جميعاً مستعدين لتقديم كل شيء، الدم والروح والمال.

قال نبيل ذلك بحماس، فتدخل جمال:

-يعني، هل تحاولون إقناعي أن السيد سميراً سيتطوع في الجيش حباً بالتضحية من أجل القضية، وليس من أجل (شوفوني)؟! هه، أراهن أنه سيعمل ما يوسعه كي ينفذ إلى الجمارك أو الشرطة أو الحدود أو..

مشيراً إلى جنبه لاوياً قامته، مبرزاً مكان المسدس.

-لأ.. لا أسمح لك يا جمال، إذا كنت أنت تريد أن تعسكر من أجل المنفخة و(البروطة) فلا تعمم، ولا تجمعني معك، وخلصنا أصحاباً.

-لا تختلفا، يعني إذا ما كان نبيل وسليم تكونان أنتما، لأ.. أرجوكم لا تتقاتلا على المعلف قبل أن تأتي الفرس، لا زال أمامنا وقت. وتصبحون على خير.

واصف وهو يغادر المجموعة عبر طريق فرعي يوصله إلى بيته، فصاح به جمال:

-إلى اللقاء مساءً.

أجاب رافعاً يده، مولياً ظهره، مبتعداً:

-أنا لا أستطيع، أرجو أن تعذروني.

وتابع سليم:

-الوقت غير مناسب.

-ماذا يا نبيل؟! المسائل التي حللناها ألا تحتاج إلى مراجعة؟!!

ضاحكاً.

-كما يريد الشباب، ولكن الأفضل يا جمال أن نؤجل ذلك إلى ما بعد الامتحانات!

هز سمير رأسه:

-هه، (عيش يا ..)، غداً نرى ماذا سيطلع منكم يا علماء عصركم.

وافترقوا كل في اتجاه داره، فيما كان الظلام قد بدأ هيمنته الفعلية على المسكونة.

-٥-

هوّن عليك يا مرزوق، فللزم وجوه، وللأمداء اتجاهات، وللمسارات تعرجات وانعطافات.. صعوبات وانحدارات.

وماذا يفيد التذكر والترحم والتأوه والترجيع؟! فتلك فترة مضت، ومرحلة انقضت، وسنون غارت في هوة الماضي؛ مواقع وأسماء وأشخاص، سجلات وقوائم ومهمات، كلها صارت ملامح ومشاهد وصوراً تتبعد وتمّحي يوماً بعد يوم..

نهايةً ما أردتها، لكنها قدر لا بد منه، ولا مناص من حلوله. ولكن ليس بهذه السرعة، وهي مقدمة غير مستحبة لفترة انعدام العمل أو الانشغال أو الأهمية، وبداية انتظار قد يطول أو قد يقصر؛ ولكن انتظار ماذا؟! الموت؟! أليس هناك سواه؟!!

ألم يكن بالإمكان أحسن مما كان أو يكون؟! استقالة/ تقاعد قبل أوانه إلى أن يحين وقته الطبيعي، ثم ماذا؟! الحال ذاتها ستتكرر..؟! يا إلهي كم هي قاسية هذه النهاية؟! خاصة لمن كان في مثل حالك..!

غريب أنت في هذه القرية كما هي غريبة عنك، ومجهول لدى كثيرين من الأحياء فيها كما هم مجهولون بالنسبة إليك، عشرات السنين تفصلك عن رحيلك الأول عنها متطوعاً أو هارباً كما ادّعى الكثيرون، وزيارات قليلة إليها عند وفاة الوالدين والمقربين الآخرين، حالّ الترحال من مكان إلى آخر بينك وبين الاستقرار بعيداً عنها..

هل كان عليك الاقتناع بالعودة إليها؟! والنزول عند دعوات أخيك، الذي ألح في هذا؛ إنه أكبر منك ولا زلت تخجل أمام رغباته؛ حماك من الفضيحة في تلك الأيام المسافرة، وهربك إلى التطوع، وظل وراءك حتى أقنعك ببناء هذا البيت لك في هذه القرية، أشرف عليه هو وابنه وزياراتك المتباعدة حتى صار جاهزاً. هكذا حسبها (تقاعد أنت، ويكون البيت قد أصبح جاهزاً، فتأتي وتستقر هنا إلى جانبي، ليس لي سواك يا أخي، إلى متى أبقي وحيداً بعدما مات والدانا، والأولاد طيروا، البنات تزوجتا، والأولاد غائبون، لا نراهم إلا في المناسبات، لم يبق عندي سوى نبيل، وأولادك أيضاً صاروا على أهبة الخروج من عش البيت. تعال يا مرزوق، ليس لي سواك.. وليس لك سواي، تعال نعش أيامنا الأخيرة معاً).

لا أدري إن كان ما فعلتُ حسناً، إذ وافقته. أو كان يمكن التفكير بحل آخر، أم كان علي موافقة زوجتي على البقاء بعيداً عن هنا، والاستقرار النهائي في المحطة الأخيرة حيث يدرس الأولاد، هي لا تفهم أن هذا أسلم، وأمن، وكيف يمكنها أن تفهم؟! أنا لم أخبرها.. ولا أتق بقدرتها على الفهم أو التقدير أو حفظ الأسرار.. إنها إحدى الخيبات في حياتي، ولا أملك حيالها سبيلاً.

ليس الآن وقت التحسّر، فقد اكتمل البيت، وامتلاً بالأغراض، وأصبح صالحاً لسكن الملوك، لا ينقصه شيء، بل تزيد فيه أشياء كثيرة جمعتها بجهودي، وعريقي وتعبي، وساعات عملي المضنية الطويلة، وتنقلي الشاق، وليقل الناس ما يقولون، ولينظروا بحسد أو غيرة أو تشكيك، لا يهمني هذا في شيء، ماذا يفعلون لو يعرفون ما أمّنت أولادي به، وماذا يوجد في الغرفة الداخلية من مواد تكفيننا لسنوات من معلبات، وأكياس، وصناديق، وأشياء أخرى؟! لن يعرفوا، ولن يدخلها مخلوق سواي، ومفتاحها لن يفارق جيبتي.

لكنني مع ذلك أحسّ بالقلق، وعدم الراحة، وعدم الانسجام مع أحد. ما زالت بعض العيون تخزني، وبعض التلميحات تدميني، رغم توددهم ومجاملاتهم وزياراتهم التفقدية، ومحدوديتهم التي ترضيني أحياناً، وتشعرنني بالملل والسأم أحياناً أخرى.

كيف ستمر الأيام؟! كيف أستطيع إشغال وقتي الطويل الطويل؟! الأرض وعرة لا تصلح لشيء، تحتاج مبالغ ضخمة لتدب فيها الروح؛ حتى إن ضحيت بهذا، هل يمكن أن أعمل بيدي، يوم كنت يافعاً لم أرض القيام بذلك، هذا مستحيل بعد كل هذا الزمن الذي مضى في الجلوس خلف المكاتب.. والتعامل بالأسماء والحسابات والجدول، وهل يمكن تأمين من يقوم بالعمل فيها بجدارة وأمانة؟!!

هل أفتح دكاناً؟! ولكن ما الذي سيبناعه هؤلاء المُعدمون البائسون؟! ماذا يمكن أن يشغلني؟! إنه الوقت الذي يمتد أو يتمدد، حتى تأتي مرحلة ينقطع فيه فجأة! قد يطول هذا الأمر.. وماذا أصنع حتى ذلك الحين! إن في انتظاره لموتاً أصعب!

لا بد من أمر آخر يشغلني.. وأشغل الناس به.. أنسيهم ماضي، وأجعلهم يفكرون بي بطريقة جديدة فريدة!!

-٦-

بانتهاء الموسم الدراسي متوجاً بالامتحانات، المتزامنة مع نهايات موسم الحصاد، يبدأ موسم آخر، موسم انتظار جني الحصادين، وهو موسمٌ عابق بالحريّة، مفعمٌ بروح الانفلات والانطلاق والمتعة، تحتضن الدروب العريضة والضيقة، والجبال الغابية، والأشجار المزاحمة للبيوت بعضاً من فصوله.

يكون هذا أول الأمر، في الأيام القليلة التي تتلو أيام الامتحانات؛ خاصة الشهادات منها، لكن أي حال لا تستمر كما تبدأ، ولا تلبث هذه الأوقات وتلك الأماكن أن تضيق وتتقاصر لتتحول إلى جزر تتقارب رويداً رويداً، إلى أن تتكثف ظللاً يعقنها الملل، وتعكبها الرتابة.

ولما كانت حال القرية لا تكاد تتميز من بيتٍ إلى بيت شكلاً ومحتويات وسكاناً، إلا في حدود ضيقة، فإن أغلب شبانها المصيفين يسعون للانشغال بتدبير المال، وتأمين ما يمكن أن يكون لهم عوناً وقوتاً إضافياً.

في الأسياف الماضية كانت بيروت تتكفل بإشغالهم عملياً، أن تواجههم فيها، والقيام بأعمال تتنوع وتتبدل وتختلف؛ وتخيلاً وذكرياتٍ بعد ذلك، لكن ما يجري فيها الآن يبعدها عن أن تكون محط أنظار أو أفكار من اعتادوها إلا في تلقّف الأخبار، وتقصي حال الكثيرين والكثيرات، الذين عاد قسم منهم غير مصدقين نجأتهم من إبحاح الموت، ولا زال قسم كبير يغالب الرغبات والاحتمالات والخسائر.

وفي حين تتبعثر المجموعة التي كانت تجمعها واجبات المدرسة، أوقاتاً وأمكنة، تستطيع (هيدرية الماء العذب) -كما أطلق واصف على حلفتهم الثلاثية هو مع نبيل وسليم منذ سنوات- أن تستمر متماسكة أطول وقت ممكن.

على الرغم من أن حال واصف تميل إلى مسيرة الآخرين مثل جمال وسمير وسواهما في الاعتياد على العمل صيفاً، بينما تتقارب حالاً نبيل وسليم، في قلة السعي للعمل: الأول لغياب موافقة الوالدين اللذين يصران على عدم مغادرة نبيل لحضنهما، بعدما غادر أخواه إلى أماكن

بعيدة وندرت زيارتهما للقرية، وغابت أختاه متزوجتين باكراً في قريتين بعيدتين، فصار كالحويد الذي لا يمكن المغامرة بقبول غيابه، فكيف إذا كان هذا الغياب للعمل، أيّ عمل، وهو الذي لم يعتد أن يرفع العود عن أخيه، لم يبادر هو ولم يطلب منه أي أمر من قبيل ذلك.

أما الثاني فقد فشلت محاولات سابقة للعمل في بيروت، لضعف في البنية وعدم القدرة على التحمل والصبر، هذا الأمر الذي أفاده هو، ولم ينفع أخواته اللواتي صرن مصدر الموارد والرزق.

ونتيجة لمرض أم واصف، ولكون واصف الولد الأكبر من بين عشرة أولاد.. ولقساوة والده وعدم توفر إمكانية التفاهم معه، هو الذي لا يغيب العرق من رأسه، كما يقول الناس في القرية، وعدم كفاية ما تقدمه أخته في ما مضى، فقد وجد واصف نفسه دائماً محاصراً بالحاجة، ومدفوعاً بقوة الوضع الراهن، ومشحوناً بالتحريض العلني والصامت، فكان منذ زمن طويل رهن البحث عن عمل، والقيام بما توفر له حتى أثناء فترة الدراسة، ساعده في هذا إصغاؤه وجلده العجيب وبنيته المتينة، التي استطاعت، إضافة إلى تحمل أعباء الداخل والخارج، جمع طبقتي الهيدرية ليشكلاً كائناً ممكن الحياة. بينما كان، ولا زال، ما يجمع نبيلاً وسليماً الوقت الشارد، والفراغ المتوالد، ومحاولات قراءة لما يقع بين أيديهما من كتب، قديمة أو حديثة، حكايات أسطورية أو روايات أدبية، هذه القراءات التي اختلفت أنواعها وتفرعت إلى دروب متباعدة. وقد كان وجودهما وحيدين على ندرته مختلفاً كلياً عن وجودهما مع واصف؛ ففي الحالة الأولى يكون اللقاء جافاً ومقللاً، مع محاولة مزدوجة للتقليل ما أمكن من التطرق إلى مواضيع الاختلاف الكثيرة، والتحدث بأي شيء يمكن أن يتم التوافق عليه بدءاً من حال الطقس، وانتهاء بما قرأه، لكن الأمر لا يستمر طويلاً.

أما حين يتواجدون ثلاثتهم، فتتفرع المواضيع، وتترطب الأجواء، وتُتبادل الطرائف والمزاح حتى التقليل منه، وقد تزداد حمى الاختلاف لثقة الطرفين أن هناك من يفك الاشتباك ويحد من تطوره، كما في كل حالات الشجار المماثلة.

الفصل الثالث

- ١ -

فجوة في الصخر، فتحة كبيرة كقمع، فمٌ واسع وفراغ يمتد متضيّقاً حتى يختفي، شفته العليا تطاولت كمظلة يتوزعها بلا انتظام اسوداد وشحوب جراء النيران التي أشعلها العائدون من رعاة ومسافرين مشياً إلى القرى القريبة والمدن البعيدة في ما مر من سنين. وتناثرت داخلها وفي محيطها أعقاب سجانر وآثار كبريت، وأوراق وبقايا زوائد وفضلات.

والفجوة تلك بعزلتها واستقلاليتها، وبعدها عن القرية والناس، كانت مقراً نهائياً، ومستظلاً لهيدرية الماء العذب. كان الثلاثة نبيل وسليم وواصف، أن التقاهم، يسرون دون تفكير إلى تلك الفجوة؛ تُترك البيوت، وتُتجاوز الأشجار وتُبرح الساحات، وأماكن اللقاءات المعتادة، وتُقصد تلك الاستراحة.

كل الأحاديث ممكنة، الطرائف والحوادث والمستجدات والمشاعر والأحاسيس والعواطف، الاتفاقات والخلافات، الشجار والحيمية. هنا يصبح الثلاثة كائنات جديدة، وربما كائناً واحداً بثلاثة رؤوس وثلاثة هياكل؛ السرية والاستقلالية والحرية إغراءات ليس من السهولة مقاومتها، والغموض والرغبة والعمق والصدى محرضات لا تخف حذتها.

النتوءات الحادة في مستهلّ العمق الداخل في المجهول. الصواعد والنوازل، الصدى المخنوق، الظلمة المتكاثفة، كلها تترك الكائن في جوٍّ جديد أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع.

ما يربطهم بهذا المكان شيء غريب، لم يفكروا فيه جهاراً، ولم يغيب عن أذهانهم سراً.

الزمان مر من هنا، وترك آثاراً لا تمحى في الأرض والحياة والذاكرة حكايات تتردد، وأساطير تروى؛ كثيرون رأوا مخلوقات غريبة تأكل أو ترقص في تلك الفوهة، وعديدون سمعوا غناء وأحاناً تتردد من أعماق الهوة، ونداءات صريحة لعابرين بأسمائهم، وآخرون مروا دون أن ينظروا إليها. أو غيروا خط سيرهم كي لا يعبروا من أمام الفوهة الجبارة الفاغرة أبداً.

فقدت زوائد، وأوعية ماء، وأدوات تدخين من جيوب متنوعة في المغارة، ألقيت حجارة على المارة، ثوار وعابرون، قطاع طرق ومطلوبون وفارّون وأفراد عصابات مروا من هنا، علق رجال من رقابهم في الشفة المتطاولة المشقوقة، ولم يكن يحلو لقاء الثلاثة إلا هناك في تلك المغارة، وفي فسحة الفوهة المنظورة.

كيف خطط لتلك اللقاءات؟! لم يفكروا، متى تم توقيع هذا الاتفاق السري، لا يعرف أيُّ منهم ذلك، ولم يخطر على بال أحدهم أن يقصد هذا المكان منفرداً.

ولم تكن أصداء جلسات الأصدقاء الثلاثة أقل شأناً من أصداء حكايات المغارة، فقد كان الأمر عجبياً ومحيراً وغير مفهوم لدى الكثيرين من أبناء القرية أو الجوار. وترك ظلال شك في الغاية من هذه اللقاءات، وماذا يمكن أن ينجم عنها.

منهم من قال: (ولدنة) وشيطنة ليس إلا..

ومنهم من تشاطر بأنها المراهقة وحب المخالفة والخروج عن المألوف.

وهناك من ادعى أنه رأى أوراقاً وأقلاماً وجرائد، واستنتج أن الأمر يعود إلى قراءات سرية في الجنس أو السياسة أو الدين.

وكلها أمور مقلقة وغير مريحة، وتترك انطباعات لدى المتابعين بأن لما يجري مردوداً سيئاً على الثلاثة أنفسهم، وعلى أسرهم، وربما على القرية كلها في وقت قادم.

- ٢ -

يمكن أن تندرج تلك الرحلة تحت عنوان الصيد، لكن الحقيقة كانت غير ذلك، فوجود بارودة واحدة لثلاثة صيادين أمر لا يقرّه محترفو الصيد، ولا هواة، فكيف إذا كانت البارودة مخلّعة دون حمالة ودون واقية زناد؟!

كانت مسيراً في الطبيعة التي تحار في تقلّب الأحوال والفصول، واستغلالاً لفرصة سانحة بين سلسلة أيام ماطرة، ومناسبة للتححرر من الفضاءات المقيدة المدخنة، واللعب على الوقت الذي يعبر كسولاً بارداً متبلاً في تلك الأيام الشتوية من العطلة المدرسية الانتصافية.

لم يكن التحرك مدروساً، ولا الانتقال من سفح إلى سفح، ومن سيار إلى سيار، ومن غابة إلى أخرى يجري عن دراية أو خبرة في دروب الصيد وأماكن الطرائد. بل كان تحركاً عشوائياً يضرب بين الشجيرات والأشجار، وعبر الحفافي والزروع، على ما أصاب كلاً منهم من مزق ومياه عالقة على كل شيء. حتى غدت ثيابهم مبللة، وكذلك شعورهم وأيديهم التي كاد يعطلها البرد، وصار حمل البارودة والعبور بها مشكلة ومسؤولية، وهذا ما جعلها تنتقل من شخص إلى آخر، دون اعتبار لما يمكن أن يطير أو يقفز من أمامهم، ولا تفكير في الصيد الذي لا يعلمون إلى الآن ماذا يمكن أن يكون.

لكن الشيء الذي لم يحسب حسابه —والذي عطل ذلك المشوار، أو عطفه، وغير في أشياء كثيرة أخرى، ذلك الحادث الذي لا يمكن أن يحدث مع صيادين مهرة، أو حتى أنصاف صيادين، فقد علق الزناد بغصن بينما كان سليم يعبر بالبارودة بين مجموعة من الشجيرات المتكاثفة، وخلفه وأمامه واصف ونبيل، حين انطلق الصوت المدوي، والصرخة المخنوقة، وتساعد الدخان من خاصرة نبيل، لم يعرف أي من الثلاثة كيف مرت اللحظات الأولى، إلى أن تحسس نبيل خاصرته بيده، وتأكد من أن الجرح بسيط، وأن الإصابة كانت طفيفة.

غير أن هذا لم يمنع الذهول من أن يسيطر قبل أن ينطلق واصف وسليم صوب نبيل مذعورين، لكن بقاءه واقفاً، وتوقفه عن الصراخ جعل الوقت الحاد يعبر قبل أن ينتقل الثلاثة إلى المغارة القريبة للوقوف على حقيقة الإصابة والحصول على إمكانية استعادة الهدوء والراحة.

قبل ذلك المشوار لم تكن المغارة في حسابهم، ولا الاختلاء بها وارداً في أفكارهم، بل كانت مجرد مسرح حكايات وروايات وأحاديث تتردد أمامهم، ولا يعطونها قدراً من الاهتمام إلا لمجاملة مفروضة، هم يعرفونها؛ مرّوا بها في فترات ماضية أثناء الطفولة المتأخرة، وفترات الرعي المتقطعة، لكنها كانت كأغلب الأماكن والأحداث التي مرت دون أن تترك أثراً واضحة في مسيرة الحياة التي تلت.

النار التي أشعلها واصف والدخان الذي يتصاعد من الحطب المبتل لم يخففاً من سطوة خوف المهيمن، ولم يقللا من حدة الرعشات التي ساهم البلل والبرد في تأجيلها إلا بعد حين.

الوجوم لَوْن وجوههم بالشحوب، وأبقى عيونهم في الأرض أو في حبال المطر التي بدأت تصل الأرض بالسماء، وجعل أي كلام مرجأً، سوى أمنية توقف المطر، ليتمكنوا من العودة إلى القرية لمعالجة الجرح قبل أن يصيبه البرد بمضاعفات تجعل الهَيِّن صعباً والبسيط معقداً، والممكن إخفاؤه ينتشر على كل شفةٍ ولسان.

وكما في كل الأوقات التي تلي حالة خطر حقيقي، يكون الأمر مدعاة للخوف كما لو كان الخطر قد وقع، ومحرضاً للتفكير ومراجعة اللحظات حتى تلك التي تبدو بسيطة وعادية هامشية.

فقد حدث الأمر نفسه لدى الشبان الثلاثة بدءاً من منطقية المشوار في مثل ذلك الوقت. ومشروعية حمل البارودة وهي في تلك الحالة، ومعقولية إبقاء الزناد مشرعاً أثناء عبور تلك الأماكن الحراجية.

وجرت الأفكار بعيداً في ما كان سيُظن لو أن الحدث أخطر من ذلك، وماذا كان سيؤوّل وما الاتهامات التي ستلقى على أيّ منهم؛ فمن غير الممكن أن تقبل الأمور كما ستروى، أو تتم معالجة الحالة بما كانت عليه فعلاً.

قال واصف محاولاً تحريك الغيوم المتلبّدة الضاغطة:

-الحمد لله لقد نجونا من كارثة.

-لا تكبرها يا رجل، حادث وانتهى.

-يعني أنك لست خائفاً، أقسم أنك غير مصدق إلى الآن ما حدث، وأن النتيجة بسيطة إلى هذه الدرجة. أنت بالذات يجب أن تشكر ربك كثيراً لأنك أنت من كان سيبتلى..

-صحيح أن البارودة كانت معي حين خرجت الطلقة، ولكن الذي يشغلني كيف كنت سأقف موقف من يطلق النار على صديقه ويقتله، تصورا ذلك!

نطق نبيل بلا اقتناع:

-لا بأس، حادث يحدث مع كل الصيادين.

-المشكلة أن سليماً ليس صياداً، ولم يره أحد في وضع الصياد، وليس من المعقول الخروج للصيد في مثل هذا الطقس القاسي.

-هل هذا يعني أن التهمة كانت ستتلبّسني؟!

-شيء من هذا، خاصة ما يعرفه الناس عن الحساسية التي بينكما. وأنا في هذه المناسبة أدعوكما للكفّ عن المشاكسة لإسكات الألسن التي تتحدث بها دائماً.

قال نبيل بهدوء:

-والله أنا ليس عندي مشكلة.

وأضاف وهو يضع يده على خصرته، ويعتصر نفسه قليلاً:

-وأؤكد أنني صافٍ، والأمر بالنسبة لي بسيط وسهل ومحلول.

-ماذا تقصد يا نبيل بك؟! هل هذا يعني أن المشكلة كلها فيّ، وأنت المتفوّق دائماً؟!

-ما علاقة التفوّق هنا؟! أنا أقول أنني صافٍ، ولا مشكلة لديّ معك على الرغم من كل ما حدث.

-هدّنا نفسيكما، ما فتحت هذا الموضوع لنخوض معركة جديدة.

-أما سمعتَ هذا المغرور، هو صافٍ ولا مشكلة لديه ومسامح، أما أنا فغير صافٍ وذو نيّة سيئة.

-لم يقل أحد ذلك، بل أنا أعبر عن صفاء نفسي تجاهك، على الرغم مما أنا عليه الآن.

-وأنا ماذا عن نفسي؟! أليست صافية؟! أما من أحد عنده نيّة صافية سواك، هكذا أنت دائماً ترى في نفسك النصر والتفوّق والغرور.

-هذا ما تراه أنت وليس أنا!

-أنا أرى أنك متفوّق؟! لا.. بالعكس أنت إنسان عادي تماماً، بل أقل من عادي.

-هذا يعكس ما في شخصيتك من عُقد، وما في نفسك من سواد.

-وأنت الملاك الطاهر؟!

-أنا لم أقل هذا.

-ولكنك تقصده.

-هذا تفسيرك.

-بل هذه أو هامك.

-أنا لا أشعر بهذا ولا أفكر فيه، ولا أتكلم عنه. ولست مسؤولاً عن تفكيرك به وحديثك عنه.

-يا ويلكما من الله، في هذا الوقت وفي هذه الظروف لا تستطيعان الكف عن الشجار؟! والله إذا لم تسكتا سأذهب لوحدي وأدعكما لتحلا مشاكلكما هنا.

قال سليم بعصبية:

-كلمه هو، ألا ترى أنفه المرفوع؟ ما الذي يجعله متفوقاً علينا آه؟!!

-هو لم يقل ذلك؛ أنت قدر ظرفه وحالته، وأنه يمكن أن يخلق لك مشكلة لما فعلت، توقف قليلاً واستمع لنتفاهم.

-تطلب منه شيئاً صعباً يا واصل، سليم لا يستطيع التوقف عن الكلام. إنه المصمودي الجديد.

-أنا؟! ما الذي أحكيه أكثر منك؟! ما الذي تخفيه عنا آه؟! هل هو أمر عظيم وبطولي أن تمارس العادة السرية دون أن تقول لنا ذلك؟!!

-يا الله ما أصعب هذا الرجل، إذا ما بدأ بالكلام وأقلت لسانه، لا أحد يوقفه، وإن استمر لا أستطيع الاستمرار في التحمل، ولا يرى أن آلامي هو سببها، ولا يعترف، ولا يتوقف عن حقه.

-لا يمكن أن تكونا معاً دون خصام أبداً، اللهم ساعدني على هذين الصديقين اللذودين، ما الذنب الذي ارتكبته حتى تجازيني بكل هذا العقاب يا ربي.

قال هذا رافعاً يديه إلى الأعلى، ثم نظر إليهما وتابع هاماً بالوقوف:

-هيا بنا! يجب أن نذهب قبل أن يحل الظلام.. وإياكما أن يسمع أحد بما جرى اليوم، وادع أنك وقعت يا نبيل.

-هات يدك الآن.. هل أحملك على ظهري؟!!

-لا، أستطيع المشي، فقط دعني أستند عليك قليلاً، عليك وحدك.

- ٣ -

كما في أيام كثيرة، انطلق عناصر هيدرية الماء العذب صوب الكهف، تاركين أقدامهم تتوزع الطريق المحفوظة بترابية متناوبة دون انتظام، وحسب اعتبارات عائمة، ووفق مقتضيات التحدّث والاستماع والشروء.

سأل واصل بعد فترة صمت:

-لماذا لم تحضر مذياعك يا نبيل؟! الامتحانات خلصنا منها، أليس هذا وقته؟!!

أجاب نبيل مومناً برأسه ناحية سليم:

-لا لزوم للمذياع، لدينا ما يكفي ويوفّي.

-البركة فيك، أنت لا تقصر أيضاً يا أستاذ نبيل.

-أنا أغني، أما الأخبار فنتركها لك.

تدخل واصف ضاحكاً:

-بماذا نبدأ إذن؟! بما يطلبه المستمعون؟ أم أنه حان وقت نشرة الأخبار المحلية؟!!

رد نبيل بسرعة:

-الأخبار ليس لها وقت محدد، حين ترد إلى الخاطر تذاع فوراً.

علق واصف:

-هذا إذا كانت الأخبار هامة وطارئة.

-إذا كان المذيع سليم فكل الأخبار هامة، ولا ينافسه في ذلك إلا المصمودي.

-على كل حال، أخباري أهون من غنائك.

-هذا يعود إلى ذوق المستمع.

-أو جودة الغناء، وصوت المغني.

قال واصف:

-لا تختلفا، بل يعود إلى الوقت الذي يتم فيه ذلك، وحال المستمعين حينئذ.

قال سليم بهدوء:

-المشكلة أنك تستطيع إغلاق الراديو أو تغيير المحطة إذا لم يعجبك الغناء، أما هنا فماذا تستطيع أن تفعل إذا ما غنى صاحبنا؟!!

مشيراً إلى نبيل ومتابعاً:

-ليس هنا من حل أمامنا سوى الهرب.

-أذكرتني الطعن وكنت ناسياً.

-لأ.. الأخبار لن تستطيع الهرب منها، فستجدها أينما ذهبت، أما بالنسبة للغناء فالأمر مختلف، فهل من فائدة له دون مستمعين؟!!

-وهل يغني المغني للآخرين فقط أم يغني لنفسه أيضاً؟!!

تساءل سليم مقهقهاً:

-والجمهور الحبيب؟!!

-ليغلقوا آذانهم، أو ليضربوا رؤوسهم بالجدران.

مشيراً إلى سليم وواصف الذي قال:

-في الحقيقة أنا يمكنني أن أسمع ولا أسمع!

التفت سليم إليه بسرعة، وقال باستغراب:

-ما هذا يا واصل؟! هل أصابك نبيل بعدوى التفلسف؟!

-حسد أو ضيق عين؟!

-على ماذا يا حسرتي؟!

-معه حق يا واصل، فهو محصنٌ ضد هذه العدوى.

-هذا فخرٌ لي.

رد سليم رافعاً رأسه ناظراً بطرف عينه صوب نبيل الذي علق على الفور:

-قال: هذا عنبٌ حامضٌ رأيتَه في حلب!

-من الذي قال؟!

سأل واصل وعلت قهقهاته مع نبيل. فعلق سليم:

-اتفق مع ذنبه.

سأل واصل بسخرية:

-من الذي اتفق؟! ومن الذنب يا سيد سليم؟!

-لا تختلفا على ذلك.

-ما يقلقك أننا لن نختلف.

-إذا كان صاحبك يسمع ولا يسمع، فكيف لمثله أن يختلف؟!

-هذه نعمة يا سليم بك.

-هنئاً لك بها يا أبا الوصف!

-المشكلة أنك لا تشغل مخك كثيراً يا أبا السلامة.

-إذا ما شغلته أصل إلى هذه المرتبة: حين يغني صاحبنا أسمع ولا أسمع؟! لأ يا سيدي، أنا لا أسمع ولا أسمع.. ولن أسمع.

-المشكلة يا سليم أن كل أمورك تبدأ من نبيل، وتنتهي عنده.

تغيرت ملامحه وأصبحت أكثر جدية ثم تابع:

-أنا لم أقصد غناء نبيل. ولا حتى الغناء كله.

-وماذا قصدت يا صاحب الرؤيا البعيدة؟

-هناك أشياء كثيرة لو أسمعها أو أفكر فيها لا أستطيع الحياة.

-تقصد في بيتكم أم في المرفأ.. أم هنا في القرية؟!

-أقصد في كل مكان: نقار كما المتواصل أنت ونبيل، أخبارك وثرثراتك، فلسفات نبيل ومعجزاته، أحاديث الناس، تعليقاتهم، اهتمامهم بالفصائح والمشاكل، حتى الأخبار التي نستمع إليها من الراديو. لذلك أنا عودت نفسي على أن أسمع ما أريد، وأتغافل عن سماع ما لا يعجبني.

قال نبيل متابعاً جدية واصف:

-والله أنا أحسدك. لو كنت مثلك ما تخليت عن الراديو بعدما اعتدته، حين كانت الأخبار هامة، منذ أن قطعت البرامج أول مرة وفي المحطات كلها، وصار الحديث عن هجوم القوات العربية وانتصاراتها على الجبهتين في وقت واحد هو العنوان الوحيد لكل الأخبار والتعليقات في الإذاعات والأحاديث في كل مكان.

أضاف سليم باللهجة ذاتها:

-حقاً كانت أياماً لا تنسى، أتذكران؟! كنا نخرج في الليل لنتابع ما يجري فوق البحر، لم ينم أحد في المسكونة، كل الناس يُمسون على الأخبار ويصبحون عليها.

-كانت الأخبار سارة، والناس غير مصدقين، كلهم رأي واحد، وموقف واحد، العرب جميعاً كانوا يداً واحدة، أتعلمان؟! والله نسيت مشاكلتي، وها أنتما اتفقتما للمرة الأولى من زمن بعيد.

-حتى حين جاء خبر عز الدين أخي زميلنا أكرم، لم يؤثر هذا في المعنويات، بل كان الناس مستعدين للتضحية بكل شيء، وجاهزين لتلقي مثل هذه الأخبار، كنا نتابع كل ما يجري متلهفين لسماع أي جديد يفرح. كان (الراديو) لا يفارقني حتى اعتدته.

-من كان يرى تعلقك (بالراديو) لم يكن يصدق أنك ستتركه.

علق سليم. واستطرد نبيل كأنما يحدث نفسه:

-كان يكفي أن تتوقع شيئاً جديداً، أن يتوقف بثّ أغنية، أو يقطع برنامج ليقال: أن هناك خبراً ورد للتوّ.

أما بعد أن صار ما صار، لم تعد تنتظر ما يُسرّاً، وليس باستطاعتي الاستماع إلي: استقبل، ودّع، اجتمع.. أو أن تسير الأغنية إلى نهايتها، أو البرنامج إلى خاتمته، فألقيته بعيداً عني؛ أحسست أنني أتخلّى عن جزءٍ هامٍ مني، ولكن..

سأل واصف وقد وصلا إلى مشارف الكهف:

-أنت حزين على الراديو أم على الأخبار؟!

أجاب نبيل ساهماً شارداً:

-أنا حزين على حالةٍ أو حلمٍ أو.. لا أدري..

وأطرق إلى الأرض، فأردف واصف:

-أرايتما؟! حين أقول لكما أنني في نعمة إذ أسمع ولا أسمع، عليكما أن تصدقاني.

-وأنا أحسدك على ذلك.

أضاف نبيل واستطرد سليم:

-أما أنا فأحسد حالي على هذا الغمّ الذي أوصلتmani إليه.

- ٤ -

الضحى أتونُ إشعاعات ضارية، والوقت يتمدد على الطرقات التي كادت تخلو سوى من بعض الذين تأخروا في تأدية واجباتهم الصباحية، جلب مياهٍ من العين، أو حطبٍ من الحرش البعيد، أو رعيّاً في السفوح الفتية والوديان التي لا زال فيها ما يقنع بالعودة إليها، والفيء يغري باستراحة أتى كان وأياً كان مصدره.

-ماذا سنفعل اليوم؟!

سأل نبيل أن وصوله إلى مشارف الظل الكثيف موجهاً الكلام إلى سليم وواصف اللذين يضطجعان بلا حماس.

-أهلاً نبيل!

رد سليم ماداً يده صوب نبيل الذي تجاهلها، وقال مقرفاً:

-هل لديكما خطة لعمل أو مشوار اليوم؟!

قال سليم مرجعاً يده:

-ولو.. ألا نستاهل كلمة مرحبا أو سلام يا أستاذ نبيل؟!

وأردف واصف:

-أهلاً نبيل بك.. وعليكم السلام.

أجاب نبيل باهتمام:

-لماذا تضيعان الوقت؟! لماذا لا تجيباني على سؤالي الواضح والصريح؟!

جلس سليم مستفزاً:

-هل جننت يا نبيل؟! هل من أحد يبدأ الكلام أو السؤال دون أن يسلم!؟

-ولماذا السلام؟! هل هو ضروري!؟

قال واصف ناهضاً من وضعية الاستلقاء إلى وضعية الجلوس:

-لا.. أكيد أنه حصل لعقلك شيء، يجب أن نأخذك إلى العصفورية.

سُرَّ سليم لهذا الكلام فأضاف منشرحاً:

-هناك سيجد من يهتم به، وسيكون معززاً مكرماً حتى لو لم يسلم!

-ماذا تقصد يا سيد سليم؟! ماذا تريد من هذا الكلام!؟

-أنا.. لا.. لا.. لا أقصد شيئاً، أقول فقط إنك يمكن أن لا تسلم هناك.. وسيحتفلون بقدمك دون سلام.. إن كنت تراه غير مهم.

-أنا أراه، فعلاً، زائداً عن الحاجة!

قال واصف مخففاً من حدة الموقف:

-إذا كنت تقصد أن العلاقة بيننا وصلت إلى حد أننا نستطيع أن نلغي الرسميات منها، فأنا معك.

رد سليم بعصبية:

-هل هذا معقول!؟ هل تصل إلى حد المرحبا، أو السلام عليكم!؟

-لا، طبعاً، أقصد السلام يداً بيد، أو القبلات، أو الأخذ بالأحضان.

-كله سواء.

علق نبيل ببرود، رافعاً نظره إلى ما يمكن رؤيته من مدىّ عبر فوهة الكهف في حين بدا غضب سليم واضحاً على لهجته:

-هل هذا ما تفقت عنه عبقريتك!؟ أم رأيت في أحلامك التي تفلقنا بها!؟

-هذه ليست عبقرية، مجرد استنتاج بعد تفكير طويل بأهمية الوقت، وسخافة الأشياء التي يستهلك فيها هذا الوقت.

قال سليم:

-لا.. هذا كثير.. كثير فعلاً، هل صار السلام مضيعة للوقت!؟

-وهل من الممكن أن تقوم علاقة دون السلام.

لو أجبتماني على سؤالي فور وصولي لوفرتما كثيراً من الوقت الضائع في الجدل العقيم، وهذا هو المثال الأقرب على ما أقول.

رد سليم بانفعال:

-كيف يمكن أن يحدث هذا يا عبقرى زمانه؟! ألا يكون السلام فاتحة لأيّ حديث أو لقاء؟!!

-بل هو فاتحة غير مكفولة النتائج، فكثيراً ما يكون اللقاء مفتوحاً ومختتماً بالسلام والأسئلة الأحوال والأقارب والأصدقاء والمعارف، دون أن تكون الإجابات جدية كما الأسئلة تماماً. حتى إذا تخلل ذلك شيء ما أساسي، فسيكون قليلاً نسبةً إلى الزمن الكلي للحديث واللقاء.

تدخل واصف متسائلاً:

-وإذا ما التقيت بشخص في الطريق أعرفه، أو لا أعرفه، وليس بيننا شيء مهم سلباً أو إيجاباً، هل أعبره دون أن أكلمه؟!!

-ولماذا تكلمه إذا كان لا شيء جدياً أو مهماً بينكما؟! ستوفر زمناً في إلقاء التحية، وتبادل السلامات، وتؤمن استمرار الأفكار والتخيلات لديك ولديه دون قطعها، وتوفر زمناً آخر في الحديث عن هذا اللقاء الذي جرى مصادفة، ولم يؤثر في قليل أو كثير على مسارك أو مساره.

علق سليم بحدة:

-إنها دعوة للخصام دون سبب أو مبرر.

-بل هي واقعية، ودعوة لممارسة الحقيقة في أبسط حالاتها.

تكلم واصف كأنما يتحدث إلى نفسه:

-الحقيقة أن هناك كثيراً من اللقاءات لا مبرر لها، والمجاملات لا معنى لاستمرارها، والقبيلات لا طعم لها؛ إنها مبالغت تفيض كثيراً عن فحواها؛ ولكن لا يكون العلاج بمبالغة سلبية؛ إنه علاج ناقص ودواء مشكوك في فاعليته.

-أراك وافقته يا أيها العبقرى الآخر؟!!

علق نبيل:

-القضية بسيطة، ولا تحتاج إلى كثير من الكلام، بل إلى هدوء وتفكير، بعد ذلك يأتي الاقتناع.

قال سليم بعصبية أقل:

-في هذه الحالة، إذا قمت وتركتنا دون وداع، سنقع في حيرة، هل أنت ذاهب بلا رجعة؟ أو ذاهب لقضاء حاجة ملحة ستعود بعدها، وهل ننتظرك أم لا؟!!

-هذه حالة يمكن دراستها، ولكن ليس عليّ معالجة كل أمر يجري بما قد يكون أعقد مما أستطيع تحليله.

عاد سليم إلى الكلام:

-بالعكس، هذا أمر بسيط للغاية، ويبرهن على عدم جدوى ما تقترح؛ إذ سيعيش الجميع دوامات حيرة وأسئلة، هل سيعود فلان أم لا!

قال نبيل بانفعال باد:

-وحين يموت واحد من الناس، لماذا نودعه؟! ولماذا نبكيه؟! هل هذا اعتراف بأننا متأكدون من أنه لن يعود؟!!

-ها.. ها.. وقعت الآن، هذا دليل واضح على عجزك عن إقناعنا، هل هذا مثال يطرح؟! هل تشبه توقف الحياة وغياب الاحتمالات بغياب مؤقت، وتساوي حال الآخرين في الموقفين؟!!

-لماذا تضحك؟! من قال لك أنه لن يعود يا سليم بك؟!!

-يعود؟! إلى أين؟! من أين؟! كيف؟! متى؟! حين ينفخ في الصور؟!!

-بل في أي وقت، ساعة الوفاة ربما، أو في أي وقت آخر يطول أو يقصر.

تابع سليم قهقهته:

-ها.. ها.. اسمعوا يا ناس، ماذا يقول صاحب التفكير والتحليل! أنت تقول هذا؟! ماذا يقول الآخرون؟!!

غامزاً بعينه ناحية واصف الذي تدخل:

-في الحقيقة، هناك كثير من الحوادث التي تدعو للتساؤل، ولكن أنا لا أستطيع التحليل أو تفسير الكيفية التي يتم بها هذا.

أردف نبيل:

وأنا مثلك لا أعرف أيضاً ولا أملك التفسير العلمي، ولكن هذا لا يجيز لي تقرير النفي القطعي؛ إنها قضية مطروحة ولا زال البحث حولها جارياً وهناك حوادث لا أستطيع الوقوف حيالها موقف الرفض المعارض.

-لا تتجادلا كثيراً حول هذا الأمر، هناك حالة ظاهرة قريبة يمكن أن نستفيد منها، هل تمانعان في الذهاب لمعاينتها؟! كنت سأقول لكما حتى قبل أن يفتح هذا الحديث.

قال سليم بثقة:

-أنا لا أمانع، بل بالعكس، أرغب به، لتتأكدا من صدق ما أقول.

رد نبيل:

-ولم تحسب أن الجواب في صالحك، هذه حالة من حالات كثيرة جداً تحتاج إلى دراسة وملاحظة واهتمام.

-يعني أنكما موافقان؟ الحمد لله أنكما اتفقتما.. هيا بنا إذن..!

-٥-

دهشة وإثارة واستغراب، انشدها وحيرة، جموع متفاوتة الأعمار والمسؤوليات تتحرك حول صبي في نحو العاشرة من عمره، ينتقل من ركن إلى ركن، ومن فسحة إلى أخرى، يدل على الحدود والجدران، يعبر الدروب التي لا زالت زواريب دون استشارة أحد، واصلاً إلى البيوت مستدلاً على الداخل، سائلاً عن أصحابها، متعرفاً على من كان لا زال على قيد الحياة، ومفتقداً من رحل بلا رجعة.

سأل عن حاكورة امتهنتها الطريق، وأشجار استباحتها آلات حادة، وآبار متناثرة.

وفي المقلع كانت المحطة الأهم، أشار إلى الموقع الذي وقع فيه الانفجار: كان لغماً في الصخر، باروداً أسود مضغوطاً بشدة، هو من كان أعده وأشعله، ولما لم ينفجر بعد فترة الانتظار العادية، رجع إليه أبو إبراهيم رغم تحذيرات أبي محمود التي قطعها انفجار وصرخة، وقامة مشلوحه على أحجار حادة الحواف، وأكد أبو محمود أنه المكان الذي حدث فيه ذلك، رغم أن معالمه تغيرت كثيراً، وأظهر لهم الصبي الجرح في مؤخرة الرأس.

لقد قال أشياء لا يفكر فيها عادة من كان في مثل سنّه، ولا يخبرها إلا من علمته السنون والتجارب، ولعل ما يجعل الأمر مثيراً أكثر برودته تجاه ما يرى، وعدم تأثره بردود الأفعال التي تظهر حوله، كان يمشي ويسأل ويعرف ويتعرف دون تردد أو رهبة أو تلكؤ.

أما أم إبراهيم فقد خجلت وخافت من المواجهة، وفكرت كيف يمكن أن تتصور أبا إبراهيم بمثل تلك الهيئة والسن وذلك الحجم، كان كبيراً في نظرها، رجلاً بكل ما تعنيه الكلمة، كانت لا تقوى على النظر في عينيه، والرد على أوامره والتباطؤ أمام طلباته فكيف يمكنها مواجهة الحالة الآن؟ وتصورها لا زال يختزنه شخصاً آخر، رغم مرور سنوات على غيابه، ولا زالت تشكو إليه عذابها، تعاتبه على رحيله المبكر وتركه لها في تنور الحياة أرملة مقطوعة من شجرة.

وهي الآن عاتبة على إبراهيم ولداها الذي ألح على ذوي الطفل أن يأتوا به من قريتهم البعيدة، كانت هي التي أرادت وألحت، لا تنكر ذلك، وتلوم نفسها عليه الآن أيضاً. لكنها لم تتوقع أن يكون الأمر بمثل هذه الصعوبة، أولادها يحاولون إقناعها، وهم متأثرون بما لأبيهم من صورة مكبرة في أذهانهم، ومنفعلون بما يجري، مستشارون ومهيجون، لا يعلمون إن كان عليهم تقديم الطاعة والولاء لأبيهم هذا، أم يتراجعون منكسرين مكذّبين: أمران، أحلاهما مر.

وحين خرجت من داخل البيت الترابي منكسة الرأس لم تقو على النظر إليه، لم يقترب منها، ناداها باسمها مكسراً /شقوق/ كما ناداها طوال عشرتهما. دار معها حول البيت، أخرج من إحدى زواياه الحجرية أوراقاً كان قد خبأها دون علمها، وفيها ((حجة)) بأرض طالباها أحد المتنفذين باسترجاعها بعد وفاته، دل على أشياء، وسأل عن العنزة الشامية، واللقن الذي بناه

بمساعدها، والدجاجات والديك الذي كان يخيف الأطفال ويتحاشاه الثعلب، والأفعى السوداء التي كانت تتردد قرب القن دون أن يقتلها، كما طلبت منه مرات، وذكرها بصندوق العرس والفراش الذي استعاراه ليلة الدخلة، والنقود التي وضعها تحت ركن البيت الأيسر.

كانت مطرقة مأخوذة حائرة خجلة، هل تحتضنه وتبكي بين يديه ما لاقته في غيابه، أم تترفع عن الاعتراف بحالة جعلتها في أرجوحة تنقلها من لا إلى نعم، ومن نفي إلى إيجاب، ومن تكذيب إلى تصديق. وبين رغبتها في هذا وذلك وتوزعها وحشرجتها، وضعت يديها على عينيها، وأجهشت في البكاء، ثم ارتمت خائفة القوى، غائبة عن الوعي، فاصطحب رجل متوسط الهيئة ابنه، وجره بقسوة، وخرج من بين الجموع التي أصابها الهرج، في حين كان الصبي لا يزال عالقاً في حالٍ بين الوعي والتذكر.

وعلى الطريق العائدة إلى المسكونة، كان الثلاثة يدبّون صامتين، يسترجعون في أذهانهم ما رأوا وما سمعوا، وينشغلون بمغالبة حجارة الطريق وأغصان شجيراتهم.

- ٦ -

الوقت الممطوط، والليل المتطاول، والفراغ المنتشر كضباب صباحي، والقمر المتباهي بغياب الشمس، كلها أمور تجعل الانطلاق رغبة والمسير احتمالاً مشروعاً، وأي اتجاه غاية.

لكن الطريق المعبدة الوحيدة أيسر الدروب، وأقربها منالاً وراحة في الحركة والمسير والحديث دون عناء كبير.

ترنيمات متنوعة، ترددات منسجمة حيناً ومتقاطعة أحياناً، أغان معروفة لمطربين مشهورين، ألحان انسيابية تتناغم مع النسيمات اللطيفة والضوء الأصفر والطريق التي تنعطف وتتمدد.

حكايات وضحكات، أخبار وأسرار وأقدام متروكة لآلية الحركة حسب الطريق والانفعال وموضوع الكلام.

لكن الوقت طويل، والطريق تنتهي عند حدود القرية التالية.

-لماذا لا نخرج على كهفنا؟!

اقترح نبيل عرضاً.

-كما تشاءان، أنا لا مانع عندي.

واعترض سليم:

-في هذا الوقت؟!

-لم لا؟! ماذا وراءنا؟!

أضاف واصف:

-أولادك يبكون؟! أم تخاف من أمهم؟!

-ولكن.. في الليل؟!

-وما الفرق بين الليل والنهار؟! المهم أن نكون معاً، ونقضي الوقت.

وعلق نبيل:

-ليس المهم أن نقتل الوقت، بل المهم أن نصرّفه بما يستحق.

فرد واصف:

-عدنا إلى فلسفاتك، المهم أن نذهب إلى هناك.

-وما الذي يستحق في ذهابنا إلى الكهف؟!

-الذي يستحق هو ما لم نجربّه بعد!

-رغم أن هذه الطريقة في الكلام تغيظني، فسأوافق، لأنكما اثنان!

الطريق المختصرة بين القريتين، والتي تحاذي الكهف في منتصفها تقريباً، ضيقة متعرجة محجرة حيناً، ومتربة حيناً آخر. تزيد في ضيقها شجيرات تطاولت أغصانها من الجانبين، وأعشاب نمت، وخشن ملمسها، وتزاحمت حتى مواطئ الأقدام، وحواف حجرية فوضوية تحاصرها في أماكن مختلفة.

كل هذا يجعل في سلوكها مشقة وخوفاً من أفاع حتى في النهار، فكيف تكون الحال في الليل أو ضوء القمر يعجز عن إضاءتها، فيستوطن الظل كثيفاً جاعلاً أمر النفاذ عبرها على عاتق الحدس والتخمين والعادة، وتاركاً احتمال تلقي الصفعات وارداً، والتعثّر ممكناً، ومغالبية ذلك بالضحك تارة والغضب تارة أخرى، والسباب على من كان السبب مراتٍ.

هل هو منبع الظل أم مصبه؟! منه ينطلق، ويتوزع على السفح والوديان؛ أو تتجمع حُزْمُهُ فيه بعد مداهمتها من الضوء الواهن التردد والحيرة والتساؤل والخوف شغلت الشبان الثلاثة كل بمفرده وهم على أبواب الكهف. تبادلوها سراً بالتباطؤ والتعثّر والالتفات، ثم جأهروا بها، وتعاونوا على إضعافها والتغافل عنها والتقاوي عليها.

كثافة الظل في الداخل جعلت الولوج شائكاً، وإحساساً كالوخز مسيطراً وشعوراً بضيق الأنفاس، وانطفاء العيون مهيمناً، وبدت لهم عملية الدخول شاقة مضنية، مخيفة كما لو أنه الدخول في المجهول، رغم أنهم يعرفون كل تفاصيله ويحفظون نتوءاته وأخاديه، وهم لم يبرحوه إلا منذ ساعات، محاولة واصف للسيطرة على الوضع، وتحريك الوقت، بدت واهنة ومكشوفة، حتى ضحكاته وطرائفه وتعليقاته كانت مختصرة وفجّة وغير مقنعة، ولم يسمع لها صدى أو رد فعل من مرافقيه الشبّحين اللذين ما زالا يبحثان عن استقرار. فأحس بانقباض شديد كأنه مكبل، ونادى بصوت قوي:

-سليم أما وجدت مكانك؟!

-لا أدري، يبدو أنني أضعته.

فقال نبيل مستغلاً الفرصة لتأكيد إحساسه بالوجود:

-هذا ليس غريباً على من أضاع عقله؟

انفجر سليم:

-اسكت، كلّه منك، الحق عليّ أنني وافقتك، ماذا سنفعل هنا؟! أه؟! قولاً يا من عقلاكما حاضران.

أجاب واصف بطريقة ممطوطة هازئة:

-نتفرج على بعضنا، ألم تشقّ إلينا؟!

-حتى هذه لا نستطيع القيام بها، هل نتفرج على أشباح؟!

همس نبيل:

- (هس!).. لا تأتِ بذكر الأشباح، هل نسيت أين نحن؟! هل تريد أن تأتي إلينا؟!

-يعني إذا لم نذكرها، لا تعلم بوجودنا، ولا تأتي إلينا؟! والله أتمنى أن تأتي لأرى أين ستوصلنا أفكاركما الجهنمية.

سأل واصف:

-هل أنت خائف يا سليم؟! يبدو من كلامك ذلك.

-خائف؟! ومم أخاف، ومعني الفارسان البطلان الصنديان؟!

-هل تؤمن بوجود الأشباح حقاً؟!

-أنا لا أؤمن إلا بوجودكما، وهذا يكفي!

-وهل نحن من الأشباح؟! إذن خذ: ها هنا ههو..

يصدر واصف أصواتاً غريبة، ويحرك يديه ويناديه مقترباً منه ويتابع:

-سليم.. أنا شمروخ (شبيك لبيك عبدك بين ايديك) اطلب وتمنى.

-اسكت يا واصف بالله عليك كفّ بلواك عني!

-هل أرمي لك نبياً في الهوة؟! هل أخنقه؟! هل أعلقه لك في تلك الشرفة الصخرية؟!

-هل ستحقق له كل آماله يا واصف؟! لماذا؟! وماذا فعل لك؟! ومن أعطاك إليه؟! ولماذا لا تكون عبيدي أنا؟!

-أنا عبدكما معاً، تابعكما، اطلباً ما تساءان!

-بل أنت الملائم الذي يجمعنا، ولولاك لا نفرط عقدنا من زمن.

-بدأت الجدَّ يا نبيل، دعنا منه الآن، أرجوك، المزاح أجمل، وأكثر راحة!

-ولكن صديقك لا يعجبه جو المزاح!

-هذا مجرد خوف، بعد قليل يعود إلى طبيعته.

-بالعكس هذه طبيعته!

-ماذا تقصد نبيل بك؟! هل طبيعتي لا تروق لك؟! الحجر الذي لا يعجبك..

-هو لا يقصد ذلك يا سليم.

-أرأيت يا واصف؟! ألم أقل لك أنك أنت الذي يجمعنا، كل كلمة نقولها يجب أن نعللها ونفسرها ونبررها.

يعود واصف إلى مكانه، ويهيمن الوجوم من جديد، وتبدأ العيون بتقرّي الأشياء أكثر، وتنتقل من الداخل إلى الخارج، إلى الحدود التي تفصل البقع المضيئة عن تلك التي تستعصي على النور المصفرّ.

ويعبر تيار من صمت بارد يزيد من جمود الأشياء والأحياء، ويمدد الوقت أو يُعلّق أشباحاً لا تتحرك.

يحاول نبيل الغناء، يبدأ ببعض الليلي، لكن الصوت يخرج مخنوقاً، يحاول مرة جديدة بأغنية ذات إيقاع أسرع، تردد صدها ضجة فوضوية غائمة.

صوت ارتطام حجر بجدران الكهف علا مع أصدائه، وتتالت أصوات عديدة كما لو أن الحجر ينتقل من جدار إلى جدار، حتى استقر عميقاً بعيداً. خلال هذه اللحظات جفل سليم ونبيل، وقفزا من مكانيهما، فاصطدما وتعانقا عرضاً، بينما لا تزال الأصداء محوّمة في الفضاء القريب، لتجعل الإحساس بالرهبنة يزداد، والشعور بالقلق يتضاعف.

قال واصف مقهقهاً:

-الحمد لله أنكما تعانقتما..

سأل سليم بحدة:

-من أطلق الحجر؟!

وتابع نبيل باللهجة ذاتها:

-أنت أطلقته يا واصف أليس كذلك؟! هل هذه مزحة؟!

-لتكن ما تكون، المهم أنها جعلتكما كائناً واحداً، لقد تعانقتما وانتهى الأمر.

احتج سليم غاضباً:

-نحن لم نتعاق، هو من انقض علي؛ ولكن لماذا رميته؟! لتخيفنا؟!!

-بل أنت الذي ألقيت بنفسك صوبي.

-كل منكما ركض باتجاه الآخر، لا تختلفا على العناق!

وبعد برهة صمت، تساءل واصف كأنما يحدث نفسه:

-ولكن ألا تعتقدان أن الحجر ابتعد كثيراً؟!!

تساءل سليم بارتباك:

-هل هذا حجر واحد، أم مجموعة أحجار متتالية؟!!

-أقسم أنه حجر واحد.

تدخل نبيل بصوت أقرب إلى الهمس:

-لقد ظل فترة طويلة يرتطم بالجدران إلى أن تلاشى.

-هم سليم واقفاً:

أرى أن علينا العودة إلى القرية فوراً.

-هل خفت مجدداً؟! لازل الوقت باكراً، وانس ما قد حصل، أو هام.

قال واصف دون اقتناع، ويتساءل نبيل:

-ترى ما حقيقة هذه الهوة؟! وماذا يوجد فيها؟!!

أجاب واصف بسرعة:

-لا يوجد فيها شيء على ما أعتقد، ولكن ما سبب حفرها؟!!

-إنها عوامل الطبيعة، أعتقد ذلك، ما رأيك يا سليم؟!!

رد سليم واقفاً:

-أنا لا يهمني ذلك، أرجو أن توافقا على العودة معي الآن.

-يقولون -والله أعلم- أن ديكاً دخل من هنا أسود، وخرج بعد كيلو متر من فتحة مماثلة أبيض.

-هل يوجد دهان أبيض في الداخل يا سيد واصف؟!!

مرت المزحة دون أن يضحك أحد. يتابع واصف:

-ربما تكون الأشباح قد قامت بدهنه!

-لا... لا تخف الرجل، هو من غير هذا لا يقوى على المكوث أكثر.

طافت أصوات قرعة خافتة بعيدة داخل الهوة فصاح سليم:

-ألا تسمعان شيئاً؟! هل عدت إلى مزاحك الثقيل يا واصف بك؟!!

-أنا.. لم أرم شيئاً.

-جاءت الأشباح، قال نبيل ذلك بصوت متهدج، وركض لمعانقة سليم، والتعلق به.

-اسمع يا نبيل، لا تضحك منه، هناك أصوات، أقسم لكما أنني ما رميت شيئاً بعد أول مرة.

توقف نبيل، وسليم، وقف واصف، أخذوا يصغون جميعاً إلى الأصوات التي تزداد باطراد.

تراكض الثلاثة، قفزوا من الكهف، وتسابقوا على الطريق المؤدية إلى المسكونة.

الفصل الرابع

- ١ -

شجرة الخروب لا تزال تجهد في مواصلة إرسال غصونها بعيداً لتؤمن مدىً أوسع. فيظل الأجساد المترامية على التخوم العريضة بين النور والظلام، جالسة أو متكئة على حجارة مبعثرة في مساحة ماء، وعلى سيرة المناخ وبروزات المواسم، وعلى بضعة أحداث وأفعال يقومون بها سحابات الأيام. يعيدونها مفصلة ومفخمة في محاولة لإضفاء معانٍ ومغازٍ على حياة تبدو في كثير من الأحيان فضفاضة على مفرداتها وعناصرها، فتدور اجتهادات مستمرة لإملاء فسحاتها بحكايات قديمة، ومسموعات لأحداث تجري في محيط لا يبتعد كثيراً، وموردٍ خارجي يكاد يكون الوحيد للحال الجديدة والأحداث المستجدة، وبمحطات متنوّعة متواصلة من المزاح والنكات والطرائف والتعليقات التي تكون في أغلب الحالات من إيداع الساعة، ونتاج ما يلاحظ وما يقال.

وحين يردد المصمودي في أكثر من مناسبة: لا يمكن أن يُكمل حديث، أو تستوفى واقعة في المسكونة، لم يكن يشكو همه وحده، وييدي قلقة الشخصي، فحسب، بل.. يعبر عن حالة يعيشها أبناؤها عن وعي أو من دونه، إذ يُستقطع الكلام مرات بالملاحظات الساخرة والاستفسارات غير البريئة، التي تجلب شجاراً يكاد يكون يومياً.

وفي حمى تصعيدهم الذاتي للحالة هذه، راحوا يوزعون الألقاب والتشبيهات التي استشرت، وكثر التعامل بها، إلى أن تلبّست أصحابها لدرجة نسيان الأسماء الحقيقية، الأمر الذي خلق صعوبة في التعرف على أصحاب الأسماء المبلّغين من قبل الدرك لأي أمر كان، وقد ساعد هذا في التهرب مراتٍ من دفع مخالفةٍ أو التوقيع على استلام دعوة، ولو إلى حين. وهذا لم يقلل من اعتراض الكثيرين وغضبهم من تلك الألقاب، ولم يخفف من مرارة المزاح وحدة المنافسة في ذلك، بعدما تركوا المنافسات الكبرى لسواهم في القرى البعيدة، أولئك الذين لا يذكرون المسكونة، ولا يوزورونها إلا حين الحاجة إلى دعم معنوي وأصوات إضافية في انتخابات الأزمنة الماضية، ولم يسلم أولئك الزعماء، حتى الذين حاولوا الوصول إلى القواعد الشعبية ابتعاداً عن آل التوفيق الذين كان لهم صداقاتهم مع آخرين، وإبعاداً لهم، من نكات وتعليقات أبناء المسكونة الذين راحوا يوزعون الوعود على المرشحين يميناً وشمالاً، ويقروون المنشورات حتى بالمقلوب، كما فعل القاموع هازراً رأسه رافعاً حاجبيه مخرجاً صفرات إعجاب من بين شفثيه؛ هو الذي لا يعرف حرف الألف من (محرّك التنوّر) أو التاء من صحن "البرغل"؛ كما قال درباز الذي كان يرافقه. وهذا لم يكن إلاً ردّاً عفويّاً على حرمان المسكونة من كل شيء، حتى من عضوية مختارية. إذ فازت بها جميعاً الحارات الأخرى، التي لا تخلو من وريث زلّة آغا، أو عائلة خادم أفندي، أو وصي زعيمٍ قديم، أو مسؤول مستحدث. تلك الحارات والقرى التي كان لها نصيب وافر من القصص المبالغ فيها والطرائف والتعليقات.. والهزائم في مباريات العتابا، ومواجهات المزاح والسخرية، التي كانت تجري، حتى على البعد، من سيّاري

سفحين متقابلين.. ولا زالت المسكونة تحتفظ وتتباهى بانتصاراتها، وتفاخر بفرسانها حتى في الجلسات اليومية..

وربما كان مردّ هذا أن للمسكونة ميزةً تُحسد عليها -ويؤسف من أجلها- وهي خلّوها من الوجوه المميزة والمسؤولين القريبين والأسر الميسورة؛ باستثناء آل التوفيق الذين ناموا على أمجادهم تلك التي لم تتجاوز حدود هذه الحارة المعزولة؛ فكانوا الحاضرين الغائبين الذين لا ينتظر منهم مشاركة أو مساعدة أو مواساة، ولا يعول عليهم في فض اشتباك، أو إصلاح ذات بين، ولا يُذكرون إلا حين يكون ضرورياً تواجد من يشرف على إقامة الطقوس الاجتماعية، والطقوس الدينية التي يحرص عليها أهالي المسكونة تكفيراً عن خطايا وأخطاء يمكن أن ترتكب في كل حين، وإبعاداً للجن والأشباح والأرواح الشريرة التي تهيمن احتمالاتها على اللحم واليقظة.

خارج آل التوفيق الجميع سواسية في المسكونة، لا فضل لأحد على أحد، ولا منّة لفلان على فلان، ولا ظهور لواحد على حساب آخر. ولكل موقعه الذي يمكن أن يصل إليه؛ حتى الصخرة البيضاء المميزة التي تجاور جذع شجرة الخروب؛ لا تخص أحداً مميزاً. بل يجلس فوقها من يصل إليها أولاً. ولقد شبهها أحد المازحين بحجر (السمركي) التي يتسابق إليها الأولاد للوصول والفوز..

ولهذه الجلسات الظهرية والأصيلية روادها الدائمون، ممن خفت قدراتهم، ووهنت قواهم عن متابعة الأعمال المجهدة في الحقول البعيدة، فنكر استفساراتهم وتوجيهاتهم التي لا تصيب في الغالب آذاناً جيدة الاستماع، أما الآخرون القادرون المشغولون، فيكون تواجدهم في الفواصل بين الأعمال الموسمية الهامة كالحصاد والذّراس والتّبين وقطاف الزيتون والدخان وتعمير المشاخر، وحين تسمح الظروف الشتوية بذلك مناخاً وأعمالاً.

وإن كانوا حتى في فترات الانشغال لا ينقطون تماماً، فلا بد من إثبات الوجود والتقاط المستجدات والوقوف على الأطراف والأكثر فضائحية وبتوءاً في المسلسل الجاري، كذلك هي حال بعض النسوة اللواتي يجاورن الفسحة؛ أما أغلب الأخريات فإن ذروة انشغالاتهن تصادف مثل هذه الفترات، فلا يحضرن إلا لاسترداد الأولاد المبعثرين في فضاءات متناثرة بين الأشجار والحفافي والبيوت، والذين لا يعترفون بالتخوم المكانية والزمانية كثيراً، وعزائهم هؤلاء المجتمعون في الفسحة الرئيسية جوار الشجرة، فترتفع أصوات النسوة، مبالغاً في الغضب والشّيمة التي تصيب العمر والمسكونة والمسببين والساعة التي كانت، فتسارع أصوات رجالية للرد ومحاولة الإسكات والمساندة، أمرين أولادهم بالانصياع لأوامر أمهاتهم استرضاءً لهن، وتمهيداً للحظات دافئة تختطف قبل أن يهيم التعب والنعاس والقلق، ويغيب الجميع في عتمة تعجز عن تبديدها سراجات ونواصات يائسة.

والمسكونة تكره الظلام الذي ألفها وتخافه. فتدور العيون القلقة والأذان المشرعة تستقرئ الخيالات، وتستشعر أية نأمة أو حركة تخدش ستار الصمت المهيم من كل الأنحاء، حتى في أوقات كثيرة من النهار..

الصمت الذي يلوح حتى من بين حركات أوراق الأشجار، أو من خلال نقيق الضفادع أو أصوات حشرات أو أحياء أليفة.

هذا الصمت لم تستسغه المسكونة رغم مرادته المزمنة؛ الصمت الذي يذكرها بوحدتها وضعفها وفقرها. ويترك الأمداء مشرعة لأفكار وذكريات و غصّات وتهيؤات وأشباح وجن تختبئون بين الأشجار أو قرب العين، في الوادي والكهف المميّز، تحوم في النهار، ويقتربون في الليل، في اليقظة كما في النوم. فيغالب أبنائها الحال المتحفزة بالتصويت المبالغ فيه. داخل البيوت، في الساحة، في الزواريب، وفي كل مكان تصل إليه الأقدام، صياحاً أو غناءً أو شجاراً في ما بينهم، بين الأزواج والزوجات، بين الجارات، بين الأهل وأولادهم وأولاد الآخرين، بينهم وبين الدواب التي تكدح تحت النير، أو تلك التي تحمل الأثقال المتنوعة، أو الأخرى التي تسرح في المراعي المتباعدة، وربما تجاوز الصراخ إلى رعاة وحتّابين من قرى بعيدة يحاولون الدخول إلى الحرم المفتوح.

إنه جنون التصويت في المسكونة، في البكاء والضحك، في النداء والغناء، في الجد والمزاح.. وهو إن كان له ما يبرره حين تكون المسافات متباعدة بين البيوت والأراضي المترامية، فإنه يتكرر أيضاً في البيوت المتلاصقة والزواريب الضيقة والساحة التي لا حدود كبيرة لها. حتى الحيوانات تشارك في هذا التظاهر، فالديوك لا تنام سوى أول الليل. وكذلك والدجاجات والمواشي والأبقار والحمير والكلاب التي تنبح باستمرار نباحاً متقطعاً يشد في أوقات أخرى...

هنا رغبة ملحة للكلام لدى الكبار والصغار، الرجال والنساء والعجائز.. قد تتجاوز اليقظة إلى النوم، فكثير من أبناء المسكونة يتحدثون في نومهم، يضحكون ويبكون، ويتناقشون، ويروون بكلام ليس أفضل بكثير من كلام اليقظة. ويتجاوز الأمر إلى حالة أخرى، فليس غريباً أن تجد شخصاً يتكلم مع نفسه، قاعداً أو ماشياً، فارغاً أو مشغولاً، وليس من قبيل رواية الأحلام للشمس أول طلوعها كي تحول دون تحقيقها، بل إن قصصاً تروى أو تبتدع، ومعارك تخاض، وبطولات تسجل قد ترافقها حركات من اليدين والرجلين، وتعابير على الوجه والأصوات، يكون الفائز الأخير فيها ذلك الشخص الذي يغالب وحدته وقلقه وخوفه.

ومن لا يتكلم مع نفسه يغني بصوت عالٍ، وتردد الوديان والسفوح أصداء العتابا التي تتودد وتتغزل أو تهدد وتتوعد، وتتنصر وتفاخر.

ومن يعييه الغناء وتضيق منه الكلمات أو المقاطع، يصقّر بشفتيه ألحاناً شعبية، أو مسموعات من الراديو الذي يوالي إذاعة الأغاني مما يطلبه المستمعون ويهدونه مع الشوق إلى الأقارب والأحبة، حتى درجت عادة الصفيّر كثيراً، وصارت دليل مقدرة ورجولة وتمييز، وأعجب بها الصغار فراحوا يتدربون عليها ويتبارون بها، ويستعينون بصفارات من بانعي الخردوات الذين زادوا من حمولتهم منها، بما يكفي طالبيها الذين راحوا يجربونها، ويتنافسون في كل وقت، وفي أي مكان، حتى سرت شائعة مجرّبة أن من يصفر داخل البيت يقبر أمه وأباه.

وإذا كان الحزن على الميت والبكاء عليه أمراً شائعاً وطبيعياً في كل القرى، فإن طقس الموت في المسكونة يأخذ منحى متصاعداً، فقد تمزق الثياب، وينتزع شعر الرأس، وتتردد أصوات النائحات والفاقدين في الوديان؛ إنه بكاء عتيق، بكاء غربة وتفجّع وشقاء، عوز وتعّب وإفلاس، تغيب الحالة أو تغيب أوقاتاً كثيرة. لكن موتاً أي موت يعيدها ملحة ومضاعفة بما لا يترك مجالاً للمكابرة والتغافل.

ولا يخفف من هذا سوى العودة إلى طقوس الخصب، التي لا تقام صامتة، بدءاً من العرس المشهود، والنيران التي تشعل (المرسح) أياماً عدة، و(الشاباش) التي تصل فضاءات أبعاد القرى، وصولاً إلى الزواج الحقيقي الذي يستفسر عنه الكبير والصغير، وصولاً إلى الولادة الصاخبة والولادات المتعددة. ويساعد اتصال السطوح، وتشارك الجدران التي قد لا تكون أكثر من ستارة قماش، حين يتزوج الأولاد في بيوت أهلهم، على توفر المعلومات من انتشار الأصوات المتقطعة، والآهات الممطوطة، أو المبتورة دون حياء أو تردد. حتى أن أخبار اللقاءات الشرعية تتناقل وتسمع كحوادث معتبرة، وقد تكون أساساً للطرائف والمزاح الثقيل. خاصة حين يحدث شجار بين الزوجين وتكون الغلبة فيه للزوجة قبولاً أو اقتناعاً، ويكاد يكون الحديث في هذا الموضوع عادياً لا حرج منه ولا خجل حتى من قبل العجائز، بل إن فيه من المتعة ما يلون اللحظات ويطرّبها، وقد يوجه كلام من قبيل ذلك للأولاد واليافعين دون أن يكونوا على علم بالمقصود؛ كأن يقال لأحدهم: أين أبوك؟! هل هو مثل الديك ينوي من النهار؟! فيتساءل الولد: على ماذا ينوي؟! فيكون الجواب قهقهات صاخبة. وقد يسأل آخر:

هل صحيح أن أباك قرط أذن أمك لأنها لم توافق؟!!

فيذهب الصبي باكياً ليتقّد أذني أمه.

وكثيراً ما ينضم هؤلاء الشبان والأولاد الكبار إلى المجتمعين في ساحة المسكونة، أو في أي مكان آخر، يلعبون الورق أو يشربون السوائل الحارقة، ليستمتعوا بالنقاط كلمات وسير ونكات تتجاوز حدود الحشمة، لذينة مشرعة دون سلطة من يوصي أو ينهر؛ هذا الذي قد يزيد من متعتها ولذتها أن يكون هو نفسه قائلها، أو الأكثر انفعالاً بها.

إذا كانت هذه هي الحال حتى بالنسبة للقاءات المشروعة المشهورة التي يطبل لها ويرمز، فكيف يكون الأمر حين تدور الشبهات، وتسري الشائعات، وتدب الشكوك، وتطوف السير؟!، وما الذي سيحدث حين تضبط علاقة تصل حدوداً لا يقبل بها حتى من كان تاريخه مبقعاً وسيرته ليست مسكاً كلها؟!!

ولا ترضى بها الشرائع والمبادئ والأعراف؟!!

وكم عدد السكاكين التي تنهال على البقرة التي تقع؟!!

هذا ما حصل لشهلاً....

أما مرزوق فقد غادر إلى اختراق آخر!

- ٢ -

-احزروا ماذا رأيتم؟!!

سألت أم سعد أن وصولها حدود شجرة الخروب دابّة على عصاها برشاقة.

تعالت أصوات الجالسين والمضطجعين بلا انتظام:

-ماذا رأيت يا أم سعد؟!

-رأيت شيئاً لم أراه منذ خمسة وعشرين عاماً!

نظرات الدهشة والاهتمام صُوبت إليها واقفة مسندة كفيها على العصا أمامها.

-ليرة ذهبية؟!

- (يقطعك الله) أنت لا تفكر إلا بالمصري يا قجّة، من أين لي بالليرات الذهبية؟!

-قد يكون فرنكاً وتظنينه ليرة ذهبية.

-هل تظن أنها لازالت غير قادرة على تمييز فرنكها عن فرنك حبّوب؟

تصاعدت قهقهات مدوّية.

-يحق لك الحكي (يا كشّاش الدبّان) كانت المصري مكومة في بيتكم.

- هل وجدت شيئاً أضعتّه كل هذه المرة؟!

-ما شاء الله يا قاموع، هل نغني في الطاحون؟!

ابتسمت وهي تحرك اللقّة على رأسها ثم تابعت:

-رأيت شيئاً لم أراه منذ خمس وعشرين سنة.

-ما هذا الشيء الذي أبهجك، وأعادك صبية؟! هل رأيت عباساً!

نظرت إليه بملامح محايدة:

-إيه عليك يا (قرعوب)، ما ذكرك به؟! هذا كان من أيام الولدنة؟! أمازلت غائراً منه؟!

-معه حق، الرجل قطع بنصيبه، ولا طلع معه شيء؛

-لا تظلمه، لولا السفر كان فيه حكي آخر، (الزلمة) سافر وما رجع.

-لا تضيّع الحديث يا درباز، إيه يا أم سعد، صفيه لنا.

-لا أستطيع وصفه.

عادت ملامح البهجة على وجهها المتعرج،

-كيف نحزر إذا كنا لا نعرف عنه شيئاً؟! هل نضرب بالرمل، أو نشم رائحة أيدينا؟! لو كان

الجردي مازال حياً لذهبنا إليه وسألناه...

-لأ يا دعبول أفندي، تعرفونه جميعاً وتحبونه كلكم وتفاخرون به.

تبادلوا النظرات، قلبوا أيديهم وشفاههم قال خرنوب:

-نعرفه كلنا؟! ما شكله؟! بماذا نستخدمه؟! أين نجده؟!

مدت يدها، أنزلت اللقمة إلى مقدمة رأسها، ثبتت العصا، خفضت عينيها لتتعلقا بنقطة ارتكاز العصا بالأرض، واصطبغت بملامح خجل من فرح عجوز، ثم قالت بصوت أقرب إلى الهمس:

-رأيت حمدان الضرير ي...!

قهقهات مجلجلة، وضربات أكف بأكف، وأكف بأفخاذ، وهياكل تتقلقل وتتقاذف:

-ما أشقاك يا أم سعد!

-هل صار لك خمس وعشرون سنة أرملة؟!

-مسكينة، تظنين أننا نحسبها مثلك؟

-من يأكل العصي غير من يعدها.

-لقد جعلتنا نشعر بالخجل!

ردت مدارية خجلها:

-فعلاً هذا واضح، أقص يديّ إذا كنتم تفكرون في الليل والنهار إلا بهذا الأمر.

-لا تظلمينا يا أم سعد؛ هل تظنين كل الناس مثلك!

-اخرس يا (خنزير الدرا) لو كنت أفكر مثلكم ما ظللت خمساً وعشرين سنة.. تلعثت قليلاً ثم تابعت: أرملة.

-ومحرومة من رؤيته، قولها، لا تخجلي!

-والله أنتم من يجب أن يخجل، ما شاء الله كل واحد وراءه قبيلة أولاد، نساؤكم تخلفن وهن يحملن الحطب، أو ينقلن الماء. القبط لا تخلف أكثر منكم.

-ماذا نفعل إذا كان الله ابتلانا بأرض لا خير فيها. جبال ووديان وصخور وحراج، ماذا سنفعل؟! يحفر الواحد منا من الصبح إلى الظهر ليقلع حجرة أو شجرة، ومن المساء إلى الصبح ليعمّر مشجرة، قاطعته وعلائم الجد ظاهرة على وجهها:

-اسكتوا! لا يتحدث أي منكم بأي شيء عن هذا الموضوع، الله لا يظلم أحداً، استغفر الله، الله يعطي كل مخلوق حسب نيته، الله لا يبلى أحداً، إنه كريم ولا يبخل على ساع، حتى النملة تجد رزقها إذا ما سعت إليه.

-ونحن ما قصرنا، سعينا إلى بيروت، وصارت الحرب ماذا نفعل؟! حظنا كذلك!

-ماذا؟! ذهبتم إلى بيروت؟! أمس صارت الحرب، وأنتم من سنين تذهبون وتأتون، لا يغيب ذنب أحدكم حتى يظهر قرنه. تخافون على (رزقكم) هنا ولا تخافون على أراضكم هناك، بناتكم

تشتغلن بدلاً عنكم، يا حيف على الرجال، ولكم عيون تنتظر وأفواه تتكلم، ومن يطول باله، ويبقى بحجة العمل هناك يضيع وقته بلا فائدة.

-يجب أن يحسب الواحد منا حساب العواقب، أما رأيت ما حل بالدرويش، هل تريديننا جميعاً مثله؟! -

-لا سمح الله؟! تخرب الدنيا إذا حصل لكم مثله، تطيق السماء على الأرض. إي لولا العيب، والخوف من أن يفسر كلامي خطأ، لأدعو ربي أن يصيبكم جميعاً ما أصابه، لأرى ماذا ستصرفون، وكيف ستعيشون.

-يا أم سعد، حرام عليك، إذا كنت حرمت منه خمسة وعشرين عاماً، لماذا تريدين أن تحرمي غيرك؟! أنت مؤمنة وتعرفين الحق، ولا عيب في الحلال.

-العيب أن يضيع وقتكم في الثرثرة والتفريخ، وغيركم يطالع من الصخر ذهباً.

-اتركينا من المواعظ الله يخليك، ألا تكفي نساؤنا؟! قلوبنا مائة من هذا الكلام، ولنعد إلى قصة العجل.

تحرك خرنوب صوبها وتابع:

-اقعدي يا أم سعد، وقولي لنا ما كان شعورك عندما رأيت ذلك الشيء!

-آه كم تحبون هذه السيرة..

هزت رأسها بانقباض.. ونظرت إلى محدثها وتابعت:

-كشعور أمك حين وحميت بك وحكت خدّها.. لو كان فيك خير ما كان على وجهك خط كقرن الخروب.

وضع يده على وجهه، أحس بالإهانة التي زاد منها الضحكات التي تعالت من كل صوب، فنظر إليها باهتمام:

-والله لقد تذكرت سؤالاً يحيرني، سأسألك إياه باعتبارك مجرّبة.

انتظر قليلاً حتى سكت الحاضرون وأضاف:

-لماذا لا تحدث الوحمة على (...). الرجل؟! -

انقلب الحاضرون من الضحك.. مدت يدها إلى غطاء رأسها تتحسسه، تحركت عصاها وقالت:

-آه كم تحبون هذه السيرة!

-هل نحبها أكثر ممن فتحها؟ ألسنت من جاء يخبرنا بذلك؟ إذا كنت ترغبين به نكلمه، وحمدان يسمع كلام الأوامم، ولا يقول شيئاً.

-وإذا لم يكن حمدان نبحت لك على غيره.

-ما رأيك بشمعون؟ هو يبحث بالفتيلة عن امرأة . ترمّل يا حسرتي وهو في الستين، اللهم أجرنا.. وتلطّف بنا.

-المهم أن لا تفكري بالموضوع ولا تشغلي بالك، عليّ أنا.. أحدثه وأقنعه!

ضربت العصا في الهواء بنفور:

-اسكتوا.. آه منكم، كأنني وقعت في ديس، فتحنا الموضوع لنضحك معكم، ألا نخلص منكم؟!!

-نحب أن نعلم بماذا سيشعر الواحد منا حين يصبح في مثل سنّك، هل ستظل نفسه خضراء، أم ستسوّد الدنيا في عينيه؟!!

-استح يا ولد، لا شيء يفيد، ولا شيء يبقى أخضر، العود اليابس لا يصلح إلا للحرق، مهما سقيته لن يخضّر، لا تصدق غير ذلك.

-هذا إذا كان قد مات جذره؛ أما ابن آدم، فطالما هو يعيش، تظل الحياة حلوةً في عينيه، وتزداد حلاوتها مع تقدم العمر..

-لا.. أنت تبرر لنفسك، ولا تريد أن تعترف بما أصابك، ألا ترى رأسك وظهرك، لا شيء يعيد الروح والشباب والأمل؛ ما يروح لا يرجع، لا يرجع أبداً، إيه.. يا دنيا.. راحت علينا..!

تحركت عصاها، قذفتها أمامها وهي تدبّ مبتعدة في حين سيطر الوجوم على الحاضرين، مع أطياف ابتسامات ذابلة.

- ٣ -

الزمن فقاعات في الثغور والزوايا.

عيون نائسة معلقة في الحيطان العتيقة، وأعمدة الخشب الداكنة؛ خطى واهنة ومدىّ مقطوع.

رغبات مسجاة وآمال ضائعة.

وبيت واسع وسع السنين الماضيات.

ضيّق ضيق النفس،

باردٌ كرتابة اللحظات،

متصدع كما العظام والمفاصل،

داكن كالنهارات،

مقفر كالليالي،

مهشم كما الروح،

جاحدٌ كما الأبناء البعيدون.

وأم سعد قطعة من أثاث معمر.. لكنها قطعة تتحرك، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يميزها عن بقية الأثاث:

الخاليّة التي تنتصب قرب الجدار، الجرة الفخارية التي تتكئ في ثغرة حائطية، صندوق الخشب العتيق الذي أصبح من ثلاثيات الأرجل، (الساموكان) اللذان تحورت ألوانهما وتشوهت، ونخرهما الدود ومسامير كثيرة علفت بها صور عتيقة حائلة اللون، بما فيها صورة أبي سعد، حتى لتظن أنها لكائنات غير معروفة، والطاقة الصغيرة التي تعلق الجدار، تلك التي عبرتها رشقاتٌ مألحة فاترة لتصيب وجه شرطي كان في مهمة للقبض على أبي سعد الذي جار على الحراج القريبة من أرضه. هذه الرشقات التي سببت لأبي سعد جرعاتٍ إضافية من العقاب حين تم القبض عليه في ما بعد.

حين تقعد أم سعد، أو تنام، يصبح البيت كهفاً مهجوراً لا حركة ولا أنفاس، ولا حياة، حتى القطة التي حلت للفصل بينها وبين الفئران، تتجلّد جوارها لتصبح قطعة أثاث أخرى ملوّنة.

تطوي أم سعد أيامها بهدوء، ودون حساب، ولولا مواعيد الأعياد والنذور التي تحرص على ألا يفوتها منها شيء، لما بقي من معنى لمرور الزمن، أو لون للحياة التي لا تزال تنبض، أو طعم للوجود الذي لا زالت تتحرك في مناخه.

تنشغل قليلاً في شؤون البيت، تخرج إلى الساحة حيث يقعد الناس تحت شجرة الخروب ظهراً وغروباً، لكنها لا تطيل المكوث، تتحدث قليلاً، تستمع أقل، تتشاجر مع الجالسين، وسرعان ما تعود إلى البيت.

حتى أبو مصطفى /المصمودي الذي لا تغيب عن يومياته، ويحن إلى مجالستها، تقول له حين يأتي منادياً من بعيد:

-أم سعد.. يا أم سعد..

-هه.. جاء البلا..

-هكذا تستقبليني يا بنت الناس؟!

-هل تركت قردتك وجئت إلي.. يا مصمودي؟!

-لا أطيقها: مثل قفة الهم!

-أنت أم هي؟!

-هل جئت لتقولي لي هذا؟!

-وماذا أقول لك؟! وماذا تريد مني؟!

-جئت لأحكي!

-ليس لي خلق للحكي، اذهب إلى الساحة عند الخرّوبة تجد بيدر الحكي.

-لا أحد يسمعني، كلهم مشغولون.

-ومن قال لك أنني فارغة الأشغال؟!

-وما يشغلك، زوجك أو أولادك؟!

-جنّت تشمت فيّ يا مهتوك الشيبة؟! يحق لك، ما شاء الله عندك ست الحسن وأولاد ملوك! ألا تستحي أن تقول هذا؟!

-لا والله، أعوذ بالله، أنا لا أشمت بأحد، قلت لك: أنا فقط أريد أن أحكي.

-وأنا قلت لك: إني غير جاهزة للكلام، ليس عندي خلق! اذهب عني! أنا لست مسؤولة عنك! دور علي غيري!

يقعد المصمودي قليلاً على حافة المصطبة الخارجية، يتحدث إليها دون أن ترد، فينهض ويدور خائباً منكسراً، بينما تتابع خطوها الوئيد داخلة إلى البيت ماسكة عوداً أو مكنسة أو جام ماء لا تزال آثار حوادث الأيام بادية على قاعها وأطرافها المعوجة.

- ٤ -

-ماذا تزرعون في البحر يا ابني؟!

نظر الجميع ناحيتها باستغراب ودهشة. ثم التفتوا صوب واصف الذي كان محور نظرها وسؤالها كما استنتج:

-نزرع في البحر؟! وماذا يمكن أن نزرع في البحر يا خالتي أم سعد؟!

انفجرت قهقهات صاخبة.

-الله لا يهون عليكم! لماذا تضحكون؟! سمعته بأذني، هل تظنون أنني مجنونة، أولاً أسمع؟! أما قلت يا واصف أنكم تعملون في الكيماوي؟!

-نعم يا أم سعد، معك حق، أنا قلت ذلك.

-إيه.. لماذا هذا الضحك؟! الضحك بلا سبب من قلة الأدب.

-الحقيقة يا أم سعد، أنني قلت فعلاً أننا نعمل في الكيماوي، يعني أننا ننقل أكياس السماد الكيماوي من السفينة إلى المرفأ، ثم يشحنونها بسيارات كبيرة إلى مناطق مختلفة.

-لا.. لا تضحك عليها، أنتم تزرعون قمحاً وشعيراً وذرة.

-لا.. لا.. يزرعون فستقاً وأرزاً وشعيرية،

-وشنكليش وبطاطا وشايًا ومته..

-والله أنتم فهيمون، على من تضحكون آه؟! على أم سعد؟! تحسبون أنني ما شفت العالم؟! إي بعيني هاتين اللتين سيأكلهما الدود، رأيتهم يردمون البحر، كانت سيارات شاحنة كبيرة تحمل صخوراً وحجارة وبحصاً وتراباً ويرمونها على الشاطئ قدام عيني، ورأيت جرافة كبيرة تجرفها إلى البحر، لماذا يتعبون كل هذا التعب إذا لم يكن للاستفادة منه آه؟! -وبعد قليل استيقظت!

نهضت نصف قومةٍ وضربته بالعصا:

-اخرس يا كشاش الدبان، تظن أنني مثلك أرى منامات وأنا مفتحة العينين. أقول لك رأيت بعيني، تقول لي استيقظت؟! -وماذا كنت تفعلين على الكورنيش يا خالتي أم سعد؟! -كنت تسبحين أليس كذلك؟! -إي صحيح يا ملعون، كنت أسبح أنا وأمك!

تعالت الضحكات مجدداً.

-لا.. لا تظلموها، كانت ذاهبة لتسجل في الثانوية الخاصة الواقعة على البحر.

بدا عليها الغضب من تواتر القهقهات المتواصلة.

-يعني أنتم أذكيا جداً.. ما شاء الله، ولا أحد يفهم غير الذي تعلم في المدارس، والله لو كان فيه مدارس على أيامنا كنا سبقناكم بزمان، إذا كان فيكم نقطة ذكاء من أين؟ أليست منا نحن؟ إيه يا حسرتي، ما كان لنا غير الشقاء والعذاب، حمل الحطب ونقل الماء والخبز على التتور، كنا نمشي بقفة الفحم مسافة ساعتين، ونعود بقفة أغراض.. إيه يا حسرتي، لا في الأول رأينا يوماً أبيض ولا في الآخر. راحت علينا هذا الجيل!!

-ماذا نستفيد من هذا الكلام الآن؟ قولي لنا ماذا كنت تعملين على البحر!

أجابت بأسى باد:

-استحووا يا جماعة، كنت ذاهبة إلى (أبو سعد) لما صار له الحادث، ونقلوه إلى المستشفى، وما رجع إلا بالتابوت. يا حسرتي عليه، الله يرحمه؛ راح وتركني بهمي، أولادي كل منهم في بلد، وأنا أتعذب لحالي، إيه.. ذكرتموني بمصيبتي...!

مسحت دموعها، تعكزت على عصاها، ومشت ببطء بينما سيطر الوجوم على وجوه القاعدين.

-ما هذا الاسترخاء يا واصف، هل أنت تعب إلى هذا الحد؟! هل زرعتم البحر أمس أيضاً؟!

ضاحكاً سأل سليم الذي وصل للتو على حدود الظل، وتابع نبيل:

-بل يحصدون ما زرعوه.

-ضحك واصف المستلقي على طوله تحت شجرة الخروب ذات ظهيرة قانطة:

-أهلاً بكما، وإن كنتما لم تسلماً بعد؛ يبدو أنك تنفذ عبقریات صاحبك دون أن تدري يا حضرة المعارض؛ المهم أنكما جنتما معاً، وهذه بادرة طيبة..

-أنا لا أنفذ آراء نبيل، وبالمصادفة وصلنا معاً، ولكن أعجبتني فكرة زراعة البحر فنسيت السلام، يا سيدي: السلام عليكم!

-وعليك السلام.

استوى واصف في جلسته وتابع:

-أتعلمان، والله أتمنى فعلاً لو كنا نزرع، كان هذا يجعلنا ننتظر الحصاد.

-بل أنتم تحصدون دون أن تزرعوا، أليس هذا أجدى.

قال سليم ذلك وهو يأخذ لنفسه مكاناً في الظل.

-كنت أظن ذلك وكثيرون مثلي. لكن الواقع أمر آخر؛ حدق نبيل الذي لا زال واقفاً:

-أراك تتكلم كأن في الأمر مشكلة كبيرة؟!

-في الواقع، هي أكثر من مشكلة، إنها مأساة!

أجاب واصف ساهماً، بعد أن عاد إلى وضعية الاستلقاء. وتابع نبيل:

-عجيب أمرك يا واصف، على الرغم من كل ما مر بك، لم نرك حزيناً إلى هذه الدرجة. ما المأساة التي تراها ولا نراها؟!

-لا بد أنها في ذهابه اليومي إلى المرفأ في سيارة عمال مع من هب ودب، ودخان وأحاديث تافهة، وكذلك السهر والعمل الليلي. بينما كان الليل عنده من قبل لأمر أهم وأشهى.

-لا.. لا يا سليم، لا تغلط، هذا الأمر لا يؤثر في إطلاقاً؛ بل إن تواجدي مع أناس في عمر والدي يعزيني، ويجعلني أتحمل أضعاف ما يمكن أن أتحملة.

-إذن ما الذي يزعجك إلى هذه الدرجة؟! التعب الجسدي أم النفسي.

سأل نبيل الذي جلس واستند إلى جذع الشجرة وحدق في وجه واصف الذي عاد إلى وضعية الجلوس، ثم زفر:

-لن تصدقاً إذا قلت لكما ما الذي يزعجني!

-كيف لا نصدق، هل هي معجزة أخرى؟! لكن لك هذه المرة!

-لا يا سليم، ليست معجزة بل هي حقيقة واقعة!

-أين؟! شغلت بالناس؟!!

سأل نبيل باهتمام.

-في المرفأ، إن ما يجري في المرفأ يفرح كثيراً، ويحزن أكثر.

-أرأيت أن آثار صديقنا الفيلسوف لا زالت مهيمنة عليك!

-نحن لا نمزح يا سليم، القضية لا تحتل المزاح.

-دعه يا واصل، لا ترد عليه، أكمل كلامك!

-لماذا لا يرد علي؟! أليس هذا الكلام فلسفة، يفرح ويحزن؛ هل هي حزورة؟!!

-لا.. ليست حزورة، بل هي مفارقة عجيبة:

مشهد السفن والبواخر الواقعة على الرصيف تفرّغ؛ أو تنتظر التفريغ؛ شيء يفرح؛ عشرات البواخر، آلاف العمال، مئات السيارات؛ المرفأ خلية نحل حقيقية لا تهدأ طوال النهار والليل، أشكال وألوان من البشر، وبضائع من كل الأنواع.

علق نبيل:

-مصائب قوم عند قوم فوائد؛ توقف العمل في مرفأ لبنان، فانتقل العمل كله إلينا، وانشغل الجميع بهذا الأمر.

-حتى أم سعد صارت تسأل عن هذا الموضوع. لم تخلُ جلسة بين اثنين من نصيب لحديث المرفأ. أما المصمودي فكانما لاقى كنزاً. يدور من بيت إلى بيت، ومن مجلس إلى آخر، ومن فيء إلى فيء، وحيث يرى بشراً، يحكي.

-حتى عادات العاشقين تعيّرت جداولها حسب نظام الورديات في المرفأ،

قال سليم غامزاً بعينه.

-هل تقصدني يا خبيث؟! أنا يمكن أن أغير مواعيدي، ولكن الحسرة على من ليس عنده من يواعده.

-لا تضيّع الموضوع يا سليم، والقضية لا تحتل المزاح..

-ما شاء الله.. لا أحد تهمة القضية غيرك.. والوطن، لولاك، لا يستطيع الوقوف على قدميه.

-أنا لم أقل أنها لا تهملك... ولكن أتمنى أن نسمع من واصل الذي يجعله يحس بكارثة ومأساة.. الرجل يحب المزاح أكثر منا، ولكنه الآن في وضع خطير.. كما يبدو.

قال واصف بامتعاض:

-إما تسكت، أو أترككما وأمشي!

أجاب سليم:

-تكلم يا سيدي، ها نحن سكتنا، ولكن بالله عليك أوضح بسرعة ما الذي يقلقك؟!

-في الحقيقة، القضية ليست بسيطة، وما أسمعه من أحاديث الناس الذين أذهب، أو أعمل معهم، وما أراه هناك أمر ينذر بكارثة حقيقية.

نهض نبيل على ركبتيه مستنداً بيده إلى الجذع، نظر إلى واصف:

-أعوذ بالله، ما هذا الكلام يا واصف؟!

-يا سيدي، التخريب الذي يجري ليس له حد. الطريقة التي يُدار بها العمل غير معقولة. المسؤولية لا وجود لها، لا عند العامل العادي، ولا عند المسؤول عنه.

-لا تكبرها يا واصف، الأمر طبيعي، العمل جديد على كثير من العمال. انتقلوا من الرعي، والمشاعر والأرض إلى الرافعات والحاويات والمستودعات والبواخر، هذه العملية ليست سهلة. غداً يتعودون وتنتهي المشكلة.

قال نبيل هذا محاولاً التخفيف من وطأة الموضوع، وتابع سليم باللهجة ذاتها:

-ولا تنسَ أن كثيرين منهم عادوا من لبنان. قليلون من يعرفون مثل هذه الأعمال، أغلب أعمالهم كانت في البناء والطينة والبلاط.. والحفر وصب البيتون..

-لا.. المشكلة أكبر من ذلك. هل يخطر على بالك أن العمال يلبسون (جزمات) و (فيلدات) في هذا الحر؟!

-يا رجل، يعملون في حمل الأغراض من كل الأنواع والأشكال، ويذهبون ويعودون في الليل ما المشكلة في ذلك؟!

-المشكلة يا سليم ليست في النهار أو الليل ولا في طبيعة العمل الذي يقومون به. المشكلة أن أحذيتهم وجيوبهم تُملأ بالسكر والرز والشعيرية والشاي وأي شيء يمكن الحصول عليه.

صرخ نبيل:

-لا.. غير معقول!

-غير معقول؟! بأم عيني أراهم كل يوم يجولون بين الأكياس، بألة حادة يشكّونها ويمزقونها لمعرفة ما تحوي.

قال سليم باستهتار:

-ليأكلوا صحتين على قلوبهم، ومهما أكلوا لن يصلوا إلى ما يأكله واحد من المسؤولين عنهم.
-لو كانت القضية في الأكل، لما حكينا، ولقلنا غداً يشبعون.. لكن الأمر تعدى ذلك إلى كل شيء
يمكن حمله؛ حتى الأدوات الكهربائية والميكانيكية..

سأل سليم:

-وماذا يعملون بها؟!

-بييعونها!

تساءل نبيل:

-بييعونها؟! لمن؟!

-أنتما هنا غافلان، منشغلان بمشكلاتكما الصغيرة.

ولا تعرفان ماذا يجري؟!

هل تصدقان أن لحمود زبائنه في السوق؟!

-يا رجل، هذا لا يعلم يمينه من شماله! لا في الأرض فلاح، ولا في الصنعة نجح.

-لكنه يعلم مالا تعلمه أنت يا سليم.

وما رأيكما في الدرويش؟! قال نبيل بسرعة مستبقاً تَدْخُلُ محتملاً من سليم:

-اتركه في مأساته، فمصيبته وفضيحة شهلا لم تتركاه له وجهاً بين الناس. لا أحد يراه، هل
يذهب معكم؟!

-أحياناً.. ولكن أراهن أن في بينه أكواماً من السكر والمعلبات.. وغيرها كثير.

-إذن صار لمرزوق منافسون؟!

-أرجوك يا سليم، تعلم أن هذا الأمر يخصني.

-هل نشتمك أو نشتمه يا نبيل أفندي؟!

-نشتمه أو لا نشتمه؛ لا أحب أن تذكر هذه السيرة!

-وهل علينا أن نذكر ما تحب، ونتجنب غير ذلك؟!

-رجعنا إلى المشكلة نفسها، الآن كنا في الحديث؟! أرجوكم أن تكفوا عن ذلك؟!

-ألا ترى السيد سليماً. يذكر هذا الأمر ليستقرني.

-إذا سكتُ أنا، هل يسكت الناس؟!

هم رأوا وسمعوا وعانوا. وتحدّثوا ويتحدّثون. اذهب وقل لهم لا أحب أن تتحدّثوا بهذا.

-كنا في مشكلة أكبر، لا تحجما المسألة!

-لا يا واصف، كله من بعض، وكل الدروب توصل إلى الطاحون، ينهض نبيل مغتاظاً يمشي في اتجاه ما. فتابع سليم: مشيراً إلى جهة سير نبيل:

لأ.. ما عدا هذه الدرب.

صاح واصف وقد قام واقفاً:

-نيل.. نيل... انتظر، سنذهب جميعاً.

-ألا يطلع لنا دور؟! هذه الجولة لي، وقد فزت بالضربة القاضية..

هزّ واصف رأسه وعلائم الانقباض بادية على وجهه.

الفصل الخامس

- ١ -

المسكونة الضائعة بين الجبال، المحمولة على أجنحة الحكايا، المشغولة بحياكة أثوابها اليومية ذاتها، ومتابعة أوقاتها التي تتكرر، ولوحتها التي لا تتغير ألوانها إلا بتغير الفصول؛ بركة راکدة تنتظر لتختلج تحت وقع ذبابة أو فراشة أو خفق جناح طائر..

كيف ستكون الحال لو ألقى حجر كبير في وسطها، حتى لو لم يتم ذلك بصخب؟! دوائر كثيرة ستتحرك متلاحقة متسارعة، دوائر تصيب كل أنحاء البركة لتصل إلى أطرافها، فتصطدم بالسفوح قليلاً، ثم تعود لتتعدم أمام موجة جديدة.

كانوا يفتقدون الأرض رجالاً ونساء، يلوكون الأحاديث والأخبار، في محاولة لتمرير الفترة الانتقالية اليومية بين الضوء والظلام، يلملمون فيها أذيال النهار الذي يتلاشى، كما تجمع الشمس إشعاعاتها، وتطويها استعداداً لسباتها اليومي داخل عباءة الليل التي لا ترجى ولا ترحم. حين تعالی صوت يردد:

-الله أكبر.. الله أكبر!-

ارتسمت علائم الانقلاب على وجوه الجميع الذين تحركوا حركات عفوية تنم عن خوف، وارتقاب خبر موت أكيد.

بدت أم سعد قادمة من الجهة الشرقية تتوكأ على عكازها، تدبّ بخفة، وتردد: الله أكبر، الله أكبر. وملامح الانفعال ظاهرة على حركاتها وصوتها.

-ما بك يا أم سعد؟! هل جُننت؟! هل ستلحقين بشهلا؟!-

-أنا مجنونة يا قاموع أفندي... إي فعلاً معكم حق.. أم أنتم المجانين، أنتم، الغافلون، يا غافل لك الله. أنتم تجلسون هنا، أخذين راحتكم ولا تعلمون ما حدث.

-ما الذي حدث؟! أخبرينا يا وجه النحس!

-أنا وجه النحس يا وجه الخرنوب؟! أم الذين يلبطون النعمة؟!-

-خير يا أم سعد؟! ماذا وراءك؟!-

-وماذا يهمك يا قرعوب بك؟!-

وماذا يهمكم؟! المهم أن تبقىوا بجوار نساتكم، لا تفكرون إلا بهذا! الله أكبر، معكم وعليكم.

-ما الذي حدث؟! أخبرينا!

-الولي طاهر ظهر، ظهر يا ناس!

-ماذا تخرفين يا أم سعد، أكيد أن عقلك سافر بعيداً.

-عقلي يا دعبول؟! لا والله عقلك وعقول المثلث هي الضائعة، الله أكبر.

-مهلك يا أم سعد، خبرينا كيف؟! وأين؟! ومن أين علمت؟!!

-وما الفائدة من إخبارك يا درباز؟! وإخبار هؤلاء الغافلين؟! يا غافل لك الله! الله يرسل نعمة لا تستقبلونها، لا تقدرون قيمتها.

مرزوق، الشيخ مرزوق جاء ليستقر هنا، لم تعطوه حقه، لم تقدروه. لكن قيمته يعرفها الله، يقدرها الله سبحانه وتعالى... الله الذي لم يجد فيكم من يحمل أمانته، أنتم لا تصلحون لشيء سوى (اللث والعجن وطق الحنك).

-الشيخ مرزوق؟! ماذا قلت؟! مرزوق صار شيخاً؟!!

هل أعطاك من خيره، من عرق جبينه؟! هل دفع لك لتقولي هذا؟! هل أرسلك إلينا؟! ألم يجد رسولاً أفضل من امرأة مخبولة؟!!

-اخرس يا قليل الدين يا قجة الكفر. رأيتم؟! نفوسكم المريضة لا ترضى لأحد أن يرزق أن يكون خيراً. من أكرم؟! أنتم أم الله؟!!

أستغفر الله الذي أعطاه، وأكرمه، موتوا في غيظكم، الله أكبر، الولي طاهر ظهر، الله أكبر.

-ما علاقة مرزوق شيخك بالولي طاهر؟! هل أقنعك أنه هو الولي طاهر؟!!

-أستغفر الله، أنا لا أتحدث معك يا قاموع أنت (كافوري)،

أدارت وجهها عنه ثم تابعت:

أستغفر الله، رأيتم أنكم لا تستحقون؟!!

-لا نستحق ماذا؟! خبرينا! ماذا سمعت ومن أخيرك؟!!

-رأيت بأم عيني الشيخ مرزوق آتياً إلى الضيعة، يحمل الفأس والرفش؛ لم أصدق نظري، مرزوق أبو مبروك يحمل الفأس والرفش؟! أكيد (ظهر الظهور) قلت في نفسي، بدأت أبسمل، لاحظ حيرتي حين سألته:

-هل تعمل بالأرض بيديك أنت يا (بو مبروك)؟! قواك الله! هل تحتاج إلى ذلك؟! لا أصدق.

ردّ علي بكل تواضع:

-هل العمل عيب يا أم سعد؟!!

تصوروا لا يريد أن يخبرني! قلت له:

- لا والله أعود بالله العمل ليس عيباً، ولكن أنت الله أعطاك، يمكن أن تضع عمالاً بالأجرة..
أتعلمون ماذا قال لي:

-لا أستطيع يا أم سعد!

فكرت كيف لا يستطيع وهو القادر المقتدر، وصرت أشك في كلامكم عنه، لولا أنني شاهدت
بنفسي أكوام المعلبات الفارغة، والعظام والأغراض التي لا تأكلها النيران.

قلت له: لا تستطيع؟! أعود بالله، من يستطيع أكثر منك؟!!

قال لي: يا أم سعد هذه هي الأوامر، لا يجوز أن يحفر أحد غيري!

-أوامر؟! سألته: ما هذه الأوامر يا (بو مبروك)، ومن يعطي الأوامر هنا؟!!

قال: الأوامر ليست من هنا!

استغربت وسألته: من أين إذن؟!!

رد بكل هدوء وتقوى:

-هذا سر، لا أستطيع أن أجهر به!

بدأت تظهر علائم السأم وفقدان الصبر، والاستخفاف، وتتعالى تعليقات الحاضرين:

-ما أطول بالك!

-وبالنا!

-بل ما أخف عقولنا!

-ألا تودون سماع السر؟! معكم حق والحق عليّ إذا كنت أريد أن أنوركم.

أدارت ظهرها، فعلاً صوت درباز:

-لا.. لا يا أم سعد خبرينا! لا تستمعي لمثل هؤلاء.

وعلق قاموع:

-هل تظن أنها تستطيع أن تذهب دون أن تحكي؟!!

توجهت إليهم من جديد واستندت على عكازها بيدها:

-لا يطاوعني قلبي، سأحكي لكم، من أجلكم، من أجل أولادكم.

قال لي:

- سر، أوامر تأتيني، أنت امرأة مؤمنة لا تفوتين عمل خير. سأقول لك، ولا أحب أن تقوليها لأحد، الله أكبر، الله أكبر.

-يعني، ألا تريدان أن تقولي لنا الآن؟!

-لا.. لا سأقول، ليغفر الله لي، أخالف وصية الشيخ؛ ولكن ليشهد الله أن ذلك من أجلكم، أنا ماذا سأستفيد؟!

أتمنى أن يكون أبناء ضيعتي مؤمنين أتقياء، أتمنى الخير للجميع هذا أنا، ماذا أفعل؟!

-خالصينا يا أم سعد! فهمنا. أنك تحبيننا وتخافين على أولادنا. انطقي الجوهرة،

-أرأيت يا قاموع أفندي؟! الله أنطقك فعلاً: هي جوهرة، قال لي أن الولي طاهر جاءه في المنام، الولي طاهر قدس الله سره قال له: أنا أنتظر من يكشف عن مقامي، أنا مدفون تحت شجرة السنديان في طرف أرضكم قرب البيدر، انتظرت من يستطيع تحمل هذه المسؤولية، وقد اخترتك أنت، اكشف عن مقامي ولك الثواب، الله أكبر، الله أكبر، أرأيتم من هو مرزوق؟! إنه الشيخ مرزوق المؤمن الذي اختاره الله ليكون ساعي خير، واختاره الولي طاهر ليعيد عن طريقه كراماته.

-ولكن يا أم سعد، لم نسمع بولي اسمه طاهر؟!

-لم نسمع؟! ومن أين نسمع؟! مثلك لا يسمع بالمؤمنين، يسمع بالنسوان والفضائح.

أنا سمعت به، أما سمعتم به أنتم؟! أنا سمعت به، وله مني نصيب أدفعه في مناسبة الفراش.

-أنت تدفعين لكل الأولياء الذين ولدوا، وماتوا، والذين لم يولدوا بعد.

ضربت على وجهها وجنبها:

-الأولياء يولدون ويموتون؟! أستغفر الله، أستغفر الله، نظرت إلى السماء:

-لا تؤاخذه يا ربي، لا تعامله بعمله، لم يعرف ما يقول، لا يقصد.. الأولياء لا يولدون ولا يموتون، يختفون إذا كان الناس لا يستأهلونهم. مثل جنابك وجناب أمثالك من أبناء هذه القرية المنحوسة.

-وهل صدقت كلامه؟! هل لعب بعقلك؟! وتأتين لتلعبى بعقولنا وتجعلينا نصدق مثل هذه الخرافات؟!

أعطينا مثل ما أعطاك، ونعدك أننا نصدق ونخبر الناس، وندعو له ونبشر به.

-أستغفر الله، لا تصدقون؟! ظلوا حيث أنتم، العبوا بأعضائكم، وامضوا أوقاتكم بالكسل والقمار والمزاح والنكران؛ غداً، أعوذ بالله، عندما يظهر الولي طاهر على يدي الشيخ مرزوق، سنرى ماذا تفعلون؟!

الله يزيدك يا شيخ مرزوق ويعطيك على قدر نيتك!

أدارت ظهرها وأخذت تدب في طريق بيتها وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة.

- ٢ -

-إيه يا شيخ نبيل، ماذا ستكتشف لنا أنت أيضاً بأحلامك التنبؤية؟!

قال سليم ذلك آن وصوله مع واصف إلى تحت شجرة الخروب حيث يجلس نبيل ساهماً، بعد أن سرى خبر رؤيا مرزوق، وصار الحديث الأهم في القرية.

رد نبيل بهدوء مشحون:

-ألا نستأهل كلمة مرحباً؟!

-إنه يطبق نظريتك!

-بل إحدى نظرياته إذا أمرت. أو نظريات العائلة؟!

-ليس المهم التطبيق، بل القناعة قبل ذلك!

تساءل سليم بانسراح:

-وهل نقتنع دون برهان؟!

-الاقتناع قد يأتي إلهاماً أيضاً.

تدخل واصف:

-هل يعني هذا أن علينا الاقتناع دون انتظار البراهين؟!

-إذا كنت تستطيع ذلك فهو نعمة، وإلا فانتظر!

-وأنت هل اقتنعت؟!

سأل سليم نبيلاً الذي أجاب بلا اهتمام:

-بماذا؟!

قال واصف هازماً رأسه:

-يا الله! كأننا نتكلم في الطاحون!!

وتابع سليم:

-بما يشغل جميع الناس هنا؟!

-ما الأمر الهام الذي يشغلهم؟! لا أدري عما تتحدثان!

-من الواضح أنك تتهرب من الموضوع وهذا دليل على عدم اقتناعك.
وأضاف سليم:

-أنت هذا موقفك؟! ظننتك أول من يصدق وبيارك.

-وأنت هل تصدق؟!!

سأل نبيل بجديّة مفاجئة.

رد سليم زاماً شفتيه، مديراً وجهه عنه:

-والله أنا لم أقرر بعد، سنبحث الأمر، ولكن...

أعاد النظر إلى واصف وتابع قائلاً:

-هناك إشكالية في الموضوع.

-ما هي هذه الإشكالية؟! مع ملاحظة أن هذه طريقة نبيل في الكلام!

أضاف سليم بهدوء مستفز:

-الإشكالية في أننا أمام حالة بوجهين:

الوجه الأول: نبيل. والوجه الثاني: مرزوق، مع حفظ الألقاب طبعاً، فهل يمكن أن نصدق نبيلاً،
ونكذب عمه؟!!

التفت واصف إلى نبيل، وقد صارت ملامحه جديّة:

-أتعرف يا نبيل؟ معه حق؛ إذا كنا نصدقك في أحلامك، فعلينا أن نصدقك، أو نكذبك معاً،

قال نبيل بنبرة كسيرة:

-هل انضممت إليه يا واصف؟! لا بأس!

ثم أضاف بعد برهة:

ولكن أريد أن أذكركم بأمر صغير، ولكنه هام: إن الذي تتحدثون عنه هو عمي!

-ما شاء الله... العائلة كلها مكاشفة!

-لا يا سليم، قصدت من ذلك أن أي كلام أو فعل عنه أو حوله يعنيني.

-هل نسبته أو نشتمه؟!!

تساءل سليم، وأضاف واصف:

-بالعكس يا نبيل، إن حالتك تؤيد حالته، وحالته تؤكد على حالتك.

-أنا لم أقل هذا. ولا يعنيني كثيراً، لكن يمكنكما أن تميّزا بين ما حكيت لكم، وتأكدتم منه، وبين هذه الحالة!

-هل تقصد أن عمك غير صادق وأنت صادق؟!

-أرجوك يا سليم لا تأخذ الأمور على هذا الشكل السلبي، أنا لم أعلق بعد على قضية عمي، ولكن أتحدث عن حالي أنا:

أنتما تعلمان أنني أرى أشياء قد تكون هامة. كما حدث قبل مناسبة الفراش، وخشيت أن أبوح به كي لا يضحك مني الناس.

سأل واصف باهتمام:

-ماذا رأيت فيها؟! ذكّرني:

-رأيت الفضاء وقد تحوّل إلى أمواج من الألوان تنساب وتترجرج. وفجأة اختفت الألوان وانطفأ النهار، وحل سواد كثيف.

-هذه قضية كبيرة لا يمكن أن يذكرها المرء ببساطة، ويدعها تمر بسهولة.

أضاف سليم:

لماذا لم تحك لأبي توفيق؟!

-كيف أحكي له؟! ماذا كان سيقول عني؟! أنسيتما أننا نُعتبر خارجين عن طاعته؟! ومعارضين لمواقفه وسلوكه وأفعاله وتاريخه هو وعائلته؟!

أذهب إليه وأشرح له ما حلمت به، لينصحني بأن أنذر نذراً وأدعوه إليه؟! ليعيد عني الأرواح الشريرة ويمنع تحقيق المنام؟!!

-لا.. إذا نظرنا من حيث النتيجة، كان يجب عليه هو، لو أخبرته طبعاً، أن يقيم نذراً كي لا يحدث ما حدث.

علق واصف، وتساءل نبيل ضاحكاً:

-ويدعوني إليه؟!

-ويدعونا جميعاً، هل يصح إذا لم ندع نحن أيضاً؟! ولماذا لم تحك لعمك مرزوق؟!

-عمي لم يكن بعد ما صار إليه يا سليم.

-ومن حيث النتيجة، أيضاً، كان على عمك، لو أخبرته، أن يقيم نذراً كي يتحقق منامك!

-لم يكن في حاجة إلى مثل ذلك النذر يا سليم، فقد تحقق ذلك، ووقّر ما كان سيصرفه.

تعالت ضحكاتهم.

-هل يعني هذا، أن حضرتك هو المسؤول عما حدث؟!!

لا يا سليم، أنا لا أدعي ذلك، وأنت تعلم أن ما جرى لم يرق لي، ولست مقتنعاً به،

تدخل واصف بلهجة بين المزاح والجد:

-وهل المنام على قد اليد يا سليم؟!!

-عند بعض الناس، قد يكون كذلك، أنسيت عمّ هذا الرجل؟!!

-أرجوك يا سليم! وأذكرك مرة جديدة أنه عمي!

-أعتقد أنني قلت أنه عمك، أليس كذلك يا واصف؟!!

ملتفتاً إلي واصف الذي لا يهتم، فيرد نبيل:

-أقصد أنك تتهمه: وهذا لا يرضيني، وأعود للتأكيد على ما قاله واصف من أن المنام ليس على قد اليد. والدليل على ذلك أن ما أراه في كثير من الأحيان قد لا يكون متعلقاً بي، ولا يكون هاماً، ولا يؤثر عليّ، تحقق أم لم يتحقق، أنسيتما؟! لقد تحدثنا بهذا من قبل، ألم أقل لكما أن حديثاً سمعته في المنام تحدث به أكرم وسمير في المدرسة أمامي في اليوم التالي.

اعترض سليم:

-كيف لا يتعلق بك، ألم يكن حول تغريد؟!!

-لا يا سيدي، لم يكن عن تغريد، بل كان عن عز الدين وما قام به من تضحية، وحادثة استشهاده. ألا تذكر يا واصف..؟!!

-أذكر ذلك.. أعتقد أنني أذكره.

-هل هذا يعني أن علينا تصديق كل ما تراه أو يراه سواك؟! وننتظر تحقيقه؟!!

- (هازاً رأسه)، رأيت؟! من أجل هذا الكلام لم أخبركما بما رأيت يوم ذهبنا إلى الكهف أول مرة، وصار ما صار.

القضية ليست في أن تخبرنا أو لا تخبرنا، بل هي أن الأمر يستحق التفكير، أو لا يستحق!

-هل تريد أن تعيدنا إلى اعتبار أن هذا الرجل وعمه من أصحاب المعجز؟!!

هز رأسه مرات.

-أنا لا أتكلم عن نبيل أو عمه يا سليم، أتحدث عما يتعلق ببعض الأمور التي لا جواب لها.

استدرك نبيل:

-مثلاً، ما رأيناه ثلاثتنا، ذلك الولد الذي تعرف على الناس والأماكن والأغراض؛ أما كنت حاضرًا يا سليم؟!!

-تقصد أبا إبراهيم الصغير؟!

ضحك ضحكة صفراء وتابع:

-في الحقيقة الأمر يحتاج إلى وقفة فعلاً. صحيح أن هذه الحالات قليلة، ولكن أمر تصديقها ليس سهلاً،

-أو تكذيبها.

أردف واصف، وتابع نبيل:

-في مثل هذا الأمر، وأنت ترى بأم عينيك، وتسمع بأذنيك، وتتحقق من القضية التي تحدث أمامك، ماذا يمكنك أن تقول؟!

قال واصف:

-أنا أتساءل لماذا بعض الناس فقط يذكرون حالهم القديمة، لماذا لا يرى كل الناس ذلك؟!

-دعونا نستعرض الحالات، علنا نصل إلى النتيجة.

-أنا فكرت ملياً في هذا الأمر، وشغلني كثيراً بعد عودتنا من ذلك العرض، وحاولت استذكار الحوادث المشابهة التي قرأت عنها أو سمعت بها.

-وهل توصلت إلى شيء مهم يا نبيل؟!

-من الطبيعي أن يتوصل إلى حقيقة أن من تحدث معه مثل هذه الأمور، هو من المؤمنين الأتقياء؛ أما الباقون، فليهدمهم الله!

-لا يا سليم، ليس الأمر هكذا؛ وسأتغاضى عن تعريضك لأن القضية هامة، والاستنتاج مهم.

-ما هو؟! شوّقتنا إليه؟!

-إن كل من سمعت بحكاياتهم عن الجيل السابق، أو أجيالهم السابقة، قد ماتوا ميتة غير طبيعية!

انتفض سليم:

-ماذا تقول؟! هل هناك ميتة طبيعية، وميتة غير طبيعية، يا نبيل أفندي؟!

-هل تقصد أنهم ماتوا بحادث مثلاً؟!

-هذا بالضبط ما توصلت إليه، ودعونا نستعرض كل ما تذكران.

تضاحك سليم هازناً:

-ولكننا نعرف الكثيرين ممن ماتوا ميتة غير طبيعية. حسب زعمكم، ولم نسمع أنهم عادوا إلى الحياة أو تذكروا حياتهم السابقة.

-أنا لم أقل أن كل من يقع له حادث يودي به، يجب أن يتذكر جيله السابق؛ بل أقول أن كل من سمعت عنهم مثل هذه الحالات وكذلك من قرأت عنهم.. كان موتهم خاطفاً. أي بحوادث قتل أو انهيارات مفاجئة، أو حوادث سير، أو نتيجة صواعق، أو حرق، أو غرق، أو أية أسباب أخرى طارئة.

-وأضيف إلى ما قلته يا نبيل، أننا لا نستطيع رصد الكرة الأرضية لنعلم.. هل عاد أولئك الذين يقصدهم سليم إلى الحياة أو لم يعودوا.

-وربما يعودون خارج الكرة الأرضية!

أردف سليم مقهقهاً فأكد نبيل جاداً:

-لا تستغرب قد يكون ذلك فعلاً.

وتابع واصف:

-على كل حال- يجب ألا نتسرع.. هذا الاستنتاج يحتاج إلى مراجعة وبحث!

وبعد برهة صمت، قال سليم الذي لم تبد عليه علائم الارتياح:

-هل هذا يعني أن الولي طاهر لم يمتهن ميثمة طبيعية!

أجاب نبيل مقطباً:

-الأمر مختلف يا سليم، عمي لا يقول أنه الولي طاهر، بل قال أن الولي جاءه في المنام، وأمره بتنفيذ مهمة.

-وما الفرق بين هذا وذاك؟! أليست كلها معاجز وأشياء خارقة؟!.

-لا.. هناك فرق كبير يا سليم بين أن يكون مرزوق الولي طاهر نفسه، أو أن يكون رآه في المنام، أو تراءى له.

-وهل هذا يعفيه من تقديم الإثباتات؟!.

-سليم، أقول لك للمرة الأخيرة إنه عمي؛

-فهمنا، إذا كان عمك، تمنعنا عن الكلام؟!.

-لا يا أخي، اذهب واسأله، وناقشه، لماذا تناقشني أنا؟!.

-ألا تذهب معنا إليه؟! أو إلى موقع المقام الطري؟!.

-لا.. اتركاني جانباً، أرجوكم!

-هل نفهم من هذا أنك رأيت مناماً جديداً، وتخاف أن يتحقق في ما لو ذهبت معنا؟!.

سأل سليم باستخفاف، وتابع واصف:

-إذا لم تذهب معنا الآن، نؤجل الموضوع، ونذهب في وقت آخر، إن كان هذا يريحك!

-لا يا واصل، إذا كان من أجلي، فلا تؤجلا الموضوع، لأنني لن أذهب في أي وقت.

قال سليم. وقد وقف بحماس:

-امش يا واصل. وخلصنا، واتركه، ربما أغفى في هذا الظل، واكتشف مقاماً جديداً لولي آخر.

والتفت إلى جهة نبيل الذي صار خلفه:

لا بأس، الآن نذهب إلى مقام عمك، وغداً إلى مقامك!

اللهم زد وبارك!

قهقه، وهو يسحب واصفاً من يده.

- ٣ -

"لماذا يحدث هذا؟! ومن أين جاءتني هذه المصيبة؟!"

أه لو لم يكن عمي!!

كان بعيداً، وكنا في راحة بال؛ نشأتق إليه، نذكره، نتذكر أولاده وزوجته، أما كان هذا يكفي؟!

هل ألوم أبي الطيب، أم ألوم نفسي؟!

كان بعيداً، وسيرته بعيدة، وسلوكه بعيداً وتاريخه كذلك!

كانت بعض التلميحات والإشارات والهمسات تُذكر أممي، لم أكن أفهم. حتى حين سألت أبي لم يقل شيئاً واضحاً، وقال كلاماً غائماً:

-وَأُذِنَّةً؛ كل إنسان يمر في هذه المرحلة، اللهم أجزنا من ساعة الغفلة!

-وما ساعة الغفلة يا أبي؟! ما الذي جرى، وما سر علاقتنا الفاترة بالدرويش وعائلته؟!

-تلك قصة قديمة، لا فائدة من ذكرها.. انتبه لنفسك يا نبيل. ولا تستمع لما يثرثر به الناس!"

لكن القصص لا تموت، هذا ما تؤكد ذاكرة القرية وتعيده مرات، كلما حضر وذكر مرزوق على لسان أحد الذاهبين إلى العسكرية، تستعاد تلك القصة وكأنها حدثت للتو. هذا ما كان أيام انقطاعه شبه التام عن مسقط رأسه.

حتى جاءت فترة تجهيز البيت، وتردده المستمر على القرية، تمهيداً للاستقرار فيها فترة مهمة في تاريخها.

فقد زاد القيل والقال، وعادت تلك القصة إلى الأذهان والأفواه وترددت أصدائها في القرى القريبة. وتناثرت التفاصيل على الأسماع. على الرغم من غياب صاحبته في مستشفى

الأمراض العقلية. وقد ذكر بعض من شهدوا ثورتها الأخيرة، وسمعوها "جدول التفقد" أن اسم مرزوق تكرر كثيراً.

غير أن حضوره وامتلاءه ومعارفه واستعداده للمساعدة برسالة أو توصية، جعل القصة تتراجع من العن إلى السر، ومن الكلام الواضح إلى الهمس، ومن التباهي بسردها وتزيين دقائقها، إلى الكلام الغامض المشكك.

لتظهر على السطح قدراته المادية، مع ما يتردد من أخبار حول التجهيزات، والأغراض، والمعلبات التي أحضرها، والتي تكفي أولاد أولاده.

وجاءت قضية ظهور الولي طاهر لتقضي على كل أثر للقصة، ولتجعل من مرزوق المرجع الذي لا يباري، والوجه الذي لا يخف بريقه.

وهذا ما جعل الكثيرين يعيدون حساباتهم، فيؤيدون بلا تحفظ، ويباركون بلا تردد.

أما من كان لهم وزن في ما مضى، وأحسوا بأن قيمتهم عرضة للتشكيك، ومواقعهم أهداف للغزو والاختراق،

فقد تفكروا جيداً، وقرروا أن ينصبوا له شركاً، ليصطادوه بسلاحه ذاته.

فكانت مناسبة الفراش الفرصة المعتبرة للأخذ بالثأر، وإعلان الفوز الأكبر... كما خطر في ذهن آل التوفيق. وخططوا له واستعدوا لتنفيذه أيما استعداد.

- ٤ -

قبل هذا العام، لم يكن لمناسبة الفراش معنى واقعي أو مبرر ملموس. فمن الطبيعي أن تأتي الفراشات مع الربيع. وأن تطوف بألوانها الزاهية، المتنوعة، وتنقلاتها المتقطعة، وخفقان أجنحتها المميّز، عبر المروج والحواكير، وفوق الأزهار التي تتباهى بشبابها في كل مكان.

مع ذلك، فإن هذا يعتبر مبرراً كافياً للاحتفال بالمناسبة التي تخص الربيع، والتي تسمى في مناطق كثيرة بأسماء متنوعة؛ لكن المعنى يبقى واحداً وهو مشاركة الطبيعة احتفالاتها السنوية فتقام الولايم في أماكن متعددة من المسكونة، تختلف قيمتها واتساع المدعويين إليها باختلاف من تقام عندهم؛ ففي حين يكتفي بعضهم بالقليل من الذبائح والمدعويين تذكرةً وزلفى، فإن آخرين يضاعفون الأضاحي ويباهون بها وبسيل المدعويين من قرى متعددة.

لكن وليمة (أبو توفيق) تبقى الرمز الأساس والعنوان الأكبر لكل الولايم التي يمكن أن تقام في هذه المناسبة، أو في أية مناسبة أخرى؛ وليمة ينتظرها الجميع ويتسابق إليها المدعويين مسؤولين وعاطلين شيوخاً وشباباً؛ وليمة هي عند مقيميها محاولة مدروسة لإعادة مجد العائلة الغابر، وعند مدعويها مناسبة لتأكيد القيمة الشخصية في أهم المناسبات الاجتماعية والدينية في المنطقة، وفرصة لإشباع العيون والبطون دون منة لدى آخرين، وطريقة انتقام لدى كثيرين من الذين يعتبرون مجرد الأكل النهم، وربما التذير مما لدى عائلة أبي توفيق رد اعتبار لما قد كان أخذ منهم، أو من أجدادهم، في زمن مضى دون قدرة على المقاومة.

كل ذلك كان يجعل من هذه المناسبة حدثاً مهماً، إذ تدب الحيوية وتزداد الحركة، وتتسارع الخطى، وتتقاطع الرغبات، وتتلاقى العيون، وترتفع الأكف، أو تتشابك، وتتناثر القبلات على الشفاه والخدود والأيدي. وتؤجل الأعمال، ويصبح لكل الأحاديث والأقوال.. والاجتماعات واللقاءات العابرة عنوان واحد: وليمة (أبو توفيق).

في هذا العام أراد آل التوفيق أن يكون للمناسبة وزن آخر، وطعم مميز، فكانت كذلك، ولكن بشكل مختلف جعلها تدخل سجل الأحداث المميزة التي حدثت خلال فترة طويلة من الزمن، وصار طبيعياً أن تؤخذ كنقطة علام في تاريخ المنطقة، دون أن يكون الأمر بلا مبرر.

فقد ارتبطت مناسبة الفراش هذه بأمرين من الصعب نسيانهما أو تجاوزهما، ومن المستبعد تكرارهما؛ مترافقين على الأقل.

وإن كان سر هذا الترافق لازال رهن التكهن والتساؤل والحيرة والعجب.

فلم يحدث- كما يروي معمر المنطقه- أن طافت أفواج من الفراشات مختلفة الألوان والأحجام والأشكال؛ عابرة الأراضي المزروعة وغير المزروعة والغابات في السفوح والوديان والسهول بحركات متعرجة مرتفعة ومنخفضة ومنحرفة ذات اليمين وذات الشمال باستعراض خلّاب قل نظيره، كهذا الذي يجري الآن.

وإن كان المعمرون قد شهدوا أمراً مشابهاً ولكنه مناقض تماماً، وهو عبور الجراد بسحابات غطت الأرض والأشجار والزررع؛ وخلفت الخراب وتركت غصات وذكريات مرة.

أما مثل هذه السحب الزاهية، وهذه الموجات المتلاحقة التي تتكثف أحياناً، وتتبعثر أحياناً أخرى. قادمة من الشرق والجنوب، فليس لها سابقة.

وعلى الرغم مما واجهته من مشاكسات الأولاد الذين راحوا يعترضونها، محاولين إمساك بعضها أو ضربها بأغصان الأشجار، أو التباري بإصابتها بالحجارة، فإن كل هذا لم يؤثر في مسيرها الاستعراضية البهي، وتدفعها الثر، ولم تتوقف في مكان.

ولكن المظاهر الاحتفالية التي فرضتها تيارات الفراش الملون، لم تخف معالم التساؤل والحيرة حول هذا العارض الطبيعي الغريب. واختلفت الآراء والتعليقات والتكهنات؛ فمن متقائل بمواسم خير...؟...، إلى متطير من هروب هذا الجمال، إلى متكهن بحدوث جذب في الأماكن التي جاءت منها، إلى مسرور من منظرها ومعناها، إلى لاهٍ بملاحقتها ومطارقتها، إلى منشغلٍ بها بالتذكر، أو أخذ الرأي أو إعطاء الشرح أو التبرير الذي ليس له مستند مقنع.

لكن هناك من كان فرحاً ومغتبياً ومشرقاً؛ فلم يكن آل التوفيق ليتركوا الحالة الاستثنائية هذه تمر دون الاستفادة منها وتجويرها لصالح المناسبة؛ فهي تعبير حقيقي عن مشاركة من الطبيعة في الاحتفاء بمناسبة الفراش، وهي بركة لا تخفى على من يستطيعون قراءة الطبيعة وفصولها ومناسباتها وطقوسها، شاءت أن تهبها لآل التوفيق، في ذكرى وليمتهم الكبرى، وفي هذا العام بالذات. وربما كانت استجابة لدعوات ملحة، ورغبات ونيات صادقة.

وسرت الدعوة للوليمة كالانشراف في أذهان الناس، وبشربها الوكلاء والمؤيدون.

صحيح أن الناس يحسبون حساب الوليمة، ويترقبونها بين ليلة وأخرى، في هذه الفترة من كل عام، لكن إعطاء الوليمة بعداً طبيعياً، وربما ما ورائياً، كان من غير الممكن أن يفوت على آل التوفيق.

لقد أضحت المناسبة الحدث الأبرز الذي شد إليه اهتمام الناس، الكبار والصغار، الرجال والنساء، وغدت الدعوة إليها تبشيراً، والمشاركة بها تبركاً، والحديث عنها اغتباطاً وانتشاءً .

فتأجلت الأعمال، وألغي السفر، واختصرت الدروس في المدارس المجاورة، وصارت دار أبي توفيق الهدف والغاية، في كل حركة للأقدام والدروب والدراجات والسيارات.

واعتبر طواف الفراشات، التي زادت موجاتها لليوم الثاني، حول القدور والطاولات والكراسي وجموع القاعدين والماشين، مشاركة في الاحتفال، زيادة في قدر المناسبة التي تستحق. أما سقوط بعضها في القدور الكبيرة بعد مرورها عبر بخارها الكثيف، فهو البركة عينها التي تستدعي التهليل والتكبير والصراخ غبطة وسعادة وانتشاء.

لكن ما حدث بعد ذلك.. ترك للمناسبة ذكرى لا تقل أهمية عن الأولى.

فقد بدت بعض العوارض على الحضور الذين سارعوا إلى منازلهم خلسة، أو استقربوا الخلاء، دون أن يترك هذا الأمر إشارة استفهام؛ فأمر طبيعي في مثل هذه الولايم العامرة، وهذه الكميات الكبيرة من الطعام، وهذا النهم الذي ازداد في مناسبة هذا العام توافقاً مع الفرح العارم، أن يزداد الخروج إلى البرية، وتزداد الحاجة إلى الإفراغ! حتى الذين شعروا بالآلام في المعدة أو الأمعاء، أخفوا الأمر كي لا يتهموا بالشراهة أو الإسراف في أكل الدسم.

وهذه الأسباب جعلت الأمر يتفاقم ليزداد عدد الآكلين والمصابين.

كما بدا يظهر بعد ساعات، حين بدأ الخبر ينتشر؛ فكثر الطلب على السيارات التي ستنقل المصابين إلى الأطباء والمشافي، وازدادت الحاجة إلى الحمير التي رفعت رؤوسها وأذناها، وتعالى الأنين من جوانب الطرقات وخلف الأكمات وفي زوايا البيوت المغلقة، وعامت الروائح في فضاء القرية؛ فتقلصت أمواج الفراشات العابرة إلى أن توقف مرورها في المنطقة مع نهاية ذلك اليوم.

ودب الذعر والتساؤل والشك، واتهم آل التوفيق، المغرضين الذين لهم مصلحة في التشويش على المناسبة والإساءة إلى سمعتهم ومركزهم.

بينما رأى الكثيرون أن قلة النظافة، والتسرع في إعداد الطعام، وحمى الشراهة، كانت الأسباب الأساسية لما يجري، إضافة إلى البرد الذي لحق بالمدعوين الذين لم تتسع لهم الغرف أو الطاولات والكراسي التي وضعت في الفناء، فاقتعدوا الأرض الرطبة خارج البيوت!

وقال آخرون: إنه إنذار سيئ، وقال أسود، كي لا يستمر آل التوفيق بإقامة مثل هذا العمل، وأنه استنكار من الطبيعة لاستنثارهم برمز هذه المناسبة دون غيرهم. وهو تذكير بتاريخهم الأسود.

أما التحقيقات الواسعة التي أجريت من قبل السلطات المختصة، فقد توصلت إلى اتهام القدور بالجريمة، ودعوة أصحاب الوليمة إلى تجديدها أو تبييضها في كل مرة. مع الإشارة إلى ضرورة التقليل من التجمعات واختصار المناسبة أقصى ما يمكن.

الفصل السادس

- ١ -

لم يكن قدوم مبروك وسهام، ولدي مرزوق، ليمر دون حساب، بل كان حدثاً مهماً في سلسلة هامة وغريبة من الأحداث تشهدها المسكونة منذ فترة.

ومما زاد من معنى قدوم الشاب والفتاة، أنها المرة الأولى التي يزوران فيها القرية، بعد أن تردد أن أيّاً من أولاد مرزوق لن يؤمّ مسقط رأس أبيه لأسباب كثيرة. ترجّعها الأصدقاء حسب مشاعر مصدرها.

فمن قائل: إن هذه إرادة الأب، الذي لا يريد أن يعيش الخوف من أن تصل أخبار فضائحه إليهم، إلى مقرر أنها تعاليم الأم التي لا ترى في القرية سوى منفى طبيعي يتسلى أهله بكش الذباب والثرثرة والاختلاف والتعامل الكسول مع الحياة والطبيعة والزمن؛ لقد رددت ذلك أكثر من مرة على مسامع من زارهم من أهل المنطقة طالباً معونة أو واسطة.. ويستشهد أصحاب هذا الرأي بأنها لم تحضر مع ولديها رغم بطلان حجتها، بعد أن انتهت امتحانات الأولاد، حتى الجامعية فيها.

أما الآخرون، فقد أشاعوا أن أبناء مرزوق أولاد مدن، وهم لا يفكرون، ولا يخطر على بالهم القدوم إلى القرية، لأن هذا خارج مجال اهتمامهم أصلاً. حين قدوم مبروك وأخته، أكد المؤكدون أن في الأمر سرّاً، وربما كانا واسطة خيرٍ بين أمهما وأبيهما اللذين اختلفا بعد أن أصر مرزوق على البقاء في القرية، وأصرت زوجته على رفضها الفكرة من أساسها.

أو أنهما سيفجران موقفاً بتوجيه من أمهما، بين مرزوق وأخيه عمّهما الوحيد، بعد ما راحا يستفسران عن أراضي والدهما.. وقاما بزيارة بعض هذه الأراضي برفقة نبيل والأب والعم، ومن دونهم أيضاً.

غير أن كل هذه الأحاديث ذابت في حمى التزاور والتسابق للتعرف عن كثب على ذرية الشيخ مرزوق، وإشراع علامات الاحترام والتقدير لهذا الرجل الذي صار صيته على كل شفة ولسان، وسيرته تسبق حديث الطقس والمواسم.

وساهم في تراجع تلك الأقاويل سرعة انسجام الولدين، وخاصة مبروك، بمجايلتهما، وتعودهما على شرب المتّة التي كانا يتحدثان عنها بقرف- كما زعم- وقد أكد نفرٌ من هؤلاء الزاعمين أن مرزوقاً كان يشربها سرّاً، وفي مكتبه أيام العز؛ بعد أن اختفت متطلباتها من البيت مراراً، نزولاً عند أوامر الزوجة.

وحركت سهام حساباتٍ جديدة بين الشبان، بعدما خسروا معركتهم من أجل تغريد التي أعجبتها روائح المدن والثياب الأنيفة والتسريجات المرتبة، وأدهشتها الجراة والإقدام والثقة بالنفس التي

بدأت لدى مبروك، منذ أول عبور لها أمام بيت الشيخ، بعد قدومهما. في طريقها إلى الحقل البعيد لمشاركة أهلها أعمال الحصاد التي يتأخرون بها عادة. هذه الأعمال التي لم تمض أيام حتى كان مبروك يشاركهم فيها. مخلفاً حسراتٍ في قلوب أصدقائه الجدد، وراحةً لكون الفائز ليس واحداً منهم، وله من الصفات ما تجعل الخسارة أمامه أخف وطأة، وأقل إحساساً بالخيبة.

وجعل أحلامهم تمتد أطول قليلاً لتصل إلى ساكنة البيت المُقرّمَد الجديدة؛ هذه الأحلام التي اعتاد أكثرهم العيش في ظلالها التي تتطاوَل وتتناوَل وفق حالات لا تتناوب بانتظام، وهذا ما يجعل الانشغال بها ذا معنى كبير.

وعلى الرغم من الحسد المبطن الذي ظهر على الأصدقاء المقيمين، لجهة نبيل القريب المباشر للضيفين المميّزين، والذي يحمل جواز حضور أو مرافقة، فإن هذا الأمر لم يترك لديه سوى تردد وحذر وانقباض. لم يجد له تفسيراً أنياً غير التعامل مع مواصفات جديدة في كل شيء.

وهذا ما زاد من حدة ما تلقى من تعريض، ووجهت إليه من تعليقات، كان أشدها من سليم، الذي قال مرة عند عودتهم ثلاثتهم من بيت مرزوق مساء:

-صحيح أن لمبروك أنفاً محذباً كأنفك، لكن أنفه مرتّبٌ ومقبول أكثر.

فتابع واصف في الاتجاه ذاته.

-هذا طبيعي، فأنف مبروك صنع في مصنع المدينة، ورسمته آلات متطورة تحت ضوء الكهرباء، أما أنف صاحبنا فقد تم تجيره بسكين مثلمة وعلى ضوء سراج نائس.

وردّ نبيل:

-أعتقد أن طريقة صنع أنفي لا تختلف عن طريقة صنع أنفيكما سوى في موهبة الصانع!

وفي مناسبة أخرى ردد سليم:

-لماذا أنف ابنة عمك مرفوع كثيراً؟!

فأجاب نبيل محتدّاً:

-ما قصتك مع الأنوف يا سيد سليم؟! ألا يخز عينيك سواها؟! أم أنها عنوان لما في نفسك منّا؟! ويراهن جمال على سهام، وزاد سمير من مشاويره عارضاً عضلاته. وتسابقوا، جميعهم سرّاً على التقرب من مبروك ومرافقته وكسب رضاه؛ في حين، كان نبيل لا يزال يجهد نفسه في محاولة حل رموز تشغله، والبحث عن إجابات تقنعه أو تريحه، ومغالبة أمنيّات كان قد فات، أو يكاد، زمن التفكير بها.

لم يكن نبيل حتى قدوم ولدي عمه، قد ألف زيارة الدار المميّزة. بل كان منظرها السابح في الفضاء، بقرميدها الذي يطوّف على حوافها، وشرفاتها يصيبه بالصداع، ويحس به نشازاً على منظر السفوح المخضرة، والبيوت التي لازال أغلبها طينياً، أما ما كان حديث العهد، ومستقر

أموال بيروت، فما كان يختلف عن رباعيات الحجارة والطين إلا بالفرندة الواسعة التي تكمل أضلاع المربع أو المستطيل قليلاً.

وكثيراً ما اختلف مع أبيه بسبب الآراء التي كان يصرح بها لرفاقه بحضوره حيناً، أو تصل إليه، إن كان غائباً. وكان يقول له في كل مرة:

-لا تنسَ أنه عمك الوحيد، وإذا نسيت ذلك، فاذاً نسيته أنك أخي الوحيد.

ولم يكن هذا الأمر ليغيّر كثيراً من المعادلة التي لم تُحل حتى بزيارة نبيل لعمه، كما طلب أبوه مراراً، إذ إن الزيارة كانت خائبة. ولم يحدث خلالها إلا لوم عمه له لمقاطعته ورغبته بتأكيد اهتمامه بأولاد أخيه؛ خاصة نبيل الذي سمع عنه ولمس من ملامحه علائم النباهة والذكاء. واعتذار نبيل بالانشغال بالدرس وامتحانات الشهادة، وسرعان ما أنقذ الموقف قدوم عدد من الذين لا تخلو ملامحهم من الخوف والأسى، وخطواتهم من الوهن والضعف، وأصواتهم من العذاب والمرارة والشكوى، ونظراتهم من الحيرة والأمل.

-٢-

غير أن قدوم مبروك وسهام، جعل من الواجب أن يكون نبيل حاضراً باستمرار في الأيام الأولى على الأقل. وعلى الرغم من حذر نبيل وقلق أمه وتعليقات أصدقائه، فقد بدا له أن شيئاً ما سيتغير، وأن ريحاً تنسم من إحدى الجهات، تحمل رطوبة تنعش يباس المسام، وتخلخل رماد الخيبة.

لم تكن سهام في المرمى يوماً، هذا إذا كان هناك مرمى، ولم تدخل الذاكرة أصلاً، ولم تكن تُذكر إلا في باب تعداد أسماء أولاد العم، واتهامهم، والتعريض بأهمهم وأبيهم، قبل أن يقرر العودة.

لكن ما بدا له، هو أن ملامحها توحى بالراحة، وكلامها وضحكها ورشاقتها تضيء جواً من الحيوية، شبيهاً بما كانت تهبه تغريد لكل الحاضرين.

لكن الاختلاف كان في بعض التفاصيل الصغيرة والزوايا الحادة والإشارات الغامضة التي لا يلاحظها-ربما- إلا من له قدرة على التنبؤ أو الحدس.

غير أن أشياء كثيرة، تتعلق بالماضي والحاضر، جعلته منكمشاً ومترددأ أكثر من أصدقائه، الذين كانوا متواجدين في أغلب الأحيان، مرافقين في أول الأمر لمبروك الذي أخذ انشغاله بتغريد يزداد، حتى صار كثير الغياب، وصار يلاحظ ذلك حين يسألون عنه في البيت مراتٍ متكررة، حجةً للتواجد في ظلال حلم مدني يبته في الرؤوس الريفية الضامئة وجود سهام، وإشراقتها، وابتسامتها التي لا تنطفئ. لكن الأمور بدأت تأخذ منحاً جديدة لأسباب مختلفة؛ فأن تقوى علاقة سليم بمرزوق أمرٌ غير متوقَّع، حتى وإن كان سليم يظن أن الشيخ طريق إلى ابنته سهام. وخاصة أن سليماً يعلم مدى امتعاض نبيل من سلوك عمه، وعدم اقتناعه بالطريق التي اتخذها، أو بالحكاية التي ابتدعها-حسب رأيه- وعلم في وقت لاحق، وشارك في تأكيد استياء مرزوق من ابن أخيه الذي كان يود أن يكون مبشراً به وداعية له.

كما أن في هذا لو تحقق - كما فسر نبيل بعدئذٍ - انتصاراً دائماً ونهائياً يحرزه سليم في معركته المستمرة معه، وهي نتيجة لا يمكن لنبل إلا أن يعترف بها ويطأئ الرأس أمامها، ويرفع الراية البيضاء.

- ٣ -

انشغال نبيل بسهام، وإحساسه بما يفكر به سليم، وما يحدث بينه وبين مرزوق، لم يكن ليمنعه عن التفكير بقضية عمه من أساسها، أو ليخفف من شكوكه، أو يحور في قناعاته التي جعلته يعيش في حالة من القلق المستمر، والتوتر المحموم.

وفكر كثيراً بالحل الذي يمكن أن يخرج من بين أمواج عاتية، ويوصله إلى بر الأمان؛ هذا كان قبل سهام التي على الرغم مما أضفته على حياته من معنى زاد حضورها من حال الفصام التي يعيشها، وقد فكر في أن يصارح مبروكاً في الأمر، لكن مرافقة الأخير، وفوضيته، وعدم جديته جعلته يلغي الفكرة، وحين فكر بالشكوى إلى سهام، تراجع كي لا يعكر الصفاء الذي يحس به، أو يخلخل الأمان الذي يستشعره من خلال التفكير بها. وتراجع أكثر من مرة حاول فيها الخوض في الموضوع مع والده الذي كان على الرغم مما يلمسه نبيل لديه من عدم اقتناع بما يحدث، شديد الدفاع عن أخيه ومشاعره نحوه، وإحساسه بالراحة لحضوره إلى المسكونة وإقامته فيها؛ كما عبّر في كل مرة.

ولم يبق أمامه إلا أن يتوجه إلى عمه مباشرة، لكن هذا الأمر يتطلب جرأة كان يفقدها قبل قدوم ابني عمه. إضافة إلى إحساس محير بالشفقة إزاء عمه الوحيد الغريب المحاصر بالثرثرات والأقويل والاتهامات.

أما في حضور الولدين، فقد صار الوضع أكثر تعقيداً، ومدعاة للتفكير والتمحيص واستنتاج الوقت الملائم لذلك. ولا شك أن الانتظار إلى ما بعد عودتهما إلى المدينة، تترك الفرصة سانحةً لالتقاط الأنفاس وتقليب الأمور على أكثر من صعيد، ويخفف من احتدام المشاعر المتناقضة التي ستدور في أذهان الولدين؛ خاصة سهام التي لم يتأكد حتى ذلك التاريخ من دقة مشاعرها وخلفية ملامحها وتقدير حجم إيجابية اهتمامها.

وكان أن قرر الانتظار. على الرغم من تنبّهه إلى أن هذا الانتظار، من جهة أخرى، يفسح المجال أمام سليم لمتابعة تنفيذ خطته والنفاذ إلى مواقع استراتيجية يصبح التراجع عنها أمراً غير مؤكّد دون مواجهة حقيقية غير مضمونة النتائج.

- ٤ -

لم يكن مفهوماً تماماً السبب الذي دعا مرزوقاً للانتقال إلى ذلك الكهف، غير أن تزامن ذلك مع قدوم ولديه إلى القرية، جعل كلاماً كثيراً يقوم على أسنة الناس، يكاد يكون معقولاً ومقبولاً؛ فالبيت غدا هدفاً للكثيرين الذين يبحثون عن ملاذ من الكوابيس، وحابسٍ "لتابعة" المتبوعين، أو دالٍ على مكان غائبٍ وضائع، أو عن شفاء سريع لمرض ملم.

أما زيادة أعداد الزائرين الملهوفين، فقد أنت بعد اشتداد حمى المعارك في لبنان، وتأخر قدوم الكثيرين وضياع أخبار الكثيرات.

وصار واجباً على الأهل والأقارب البحث عنهم لدى الشيخ مرزوق، ونذر النذور، وتقديم الأضاحي على يديه بعد أن تعذر إيجاد سبيل آخر.

كل ذلك جعل البقاء في البيت، والقيام بكل الطقوس المطلوبة أمراً غير ممكن. ولا سيما أن هذا جديد وغريب وغامض بالنسبة إلى الولدين اللذين بدءا بإطلاق الأسئلة التي كان من السهل الإجابة عنها حين صدورهما من أهل القرية في بداية المشوار الصعب. لكنها تبدو الآن أصعب بكثير. بل إن كثيراً منها ظل بلا جواب مقنع. وقبل أن يستفحل الأمر ويصل حد المواجهة، برزت قضية المغادرة النهارية للبيت.

كانت الفكرة الأولى التي طافت على سطح بحيرة القلق والتفكير والبحث عن حل هي الانتقال إلى الغرفة التي أنشأها عند مقام الولي، والإقامة فيها، لكن هذا الأمر لم يستمر أكثر من أيام قليلة لأسباب ما يزال أهمها غير مفهوم، لكن مجاورة المقام والطقوس التي تقام قربها مباشرة تقلل من أهمية الشيخ مرزوق الذي له اليد الطولى بل الوحيدة في إظهاره إلى الوجود من جديد.

أما السبب الذي تمّ بثّه عبر أم سعد فهو أن القادمين لا يحترمون المقام، ولا يقدرونه حق قدره، حتى صار حوله كمكان رمي القمامة، وهذا لا يليق بمقام الولي، ولا يرضى به، فجاء إلى الشيخ مرزوق في المنام، وعبر له عن استيائه من هذا الأمر. لكن السبب المباشر المقنع لدى الكثيرين، هو وجود المقام قريباً من بيدر القرية الذي تتكسد فوق أكوام الزروع والذي يغدو أيام نقلها إليه على الدواب، أو على رؤوس النساء مزدحماً. أما التظاهرة الكبرى في ذلك المكان تحدث حين قدوم الدراسة وهذا ما يجعل من غير الممكن أن يبقى الشيخ هناك، وأن يظلّ لطقوسه ذلك المعنى المميز. وربما كان هذا سبباً أكيداً لفشل الكثير من "الحسابات"، وعدم قبول كثير من النذور التي لم يتحقق المراد منها.

فما كان أمامه من حل سوى البحث عن مكان آخر.

غير أن اختيار الكهف بالذات، يجب أن يكون وراءه سبب وجيه يتجاوز قضية بعده عن الناس، وعزلته التي تيسر القيام بكل طقوس العبادة والصلاة والدعاء والتزلف وطلب المساعدة، كما جاء في متن المنام الذي انتشر ببسر، وبفيض عن دعوى أن اتجاه الكهف يخالف الاتجاه المألوف لكائنات تلك القرية، ولنشاط أبنائها الذي دخل فيه ولدا مرزوق حتى صار جزءاً مهماً منه ومن أصدائه. ومن غير المستبعد أن يكون لسليم دور في هذا. رغم أن الكهف غير ضائع تماماً من ذاكرة مرزوق. لكن مع كل ذلك، فقد كان الكهف مكاناً مناسباً، بل المكان الأكثر ملاءمة من كل المواقع والاتجاهات؛ فالجو الإسطوري الذي يهيمن فيه، والأشكال الغريبة التي تهيئها تنوّهاته وتجاويفه، وأشباح المعلقين في الشرفة الصخرية، والشحوب الذي يتوزع فوهته ومساحاته، وأصداء الكلام والتحرك تجعل من الوصول إليه تعبيراً عن جهد كبير وأمل عظيم وثقة مطلقة، والمكوث فيه رسالة صادقة خالصة، لوجه الله وخير الناس.

وهو ما يلزم الشيخ مرزوق للقيام بما تتطلبه الحال، وتقتضيه المسؤولية التي صار من غير الممكن التخلي عنها، أو التساهل إزاء تحملها.

-٥-

"وحيداً في شتات الساعات والأيام، غريباً على حدود الجزر التي تقلقلها الأمواج، وفوق المركب المتأرجح بين الشك والشك، والسؤال والسؤال.

البحر متكدر، والأفق مغير، والرياح متاهة.

إلى أين سيصل المركب اللاهي، والقافلة اللاهثة خلف طيور سود؟!

كيف انقلبت الأشياء؟! وتبدلت الصور؟! وتفرق الصحب؟!

وكيف تحول الكائن هيكلاً عظيماً بلا دم أو لحم؟!

وكيف صرت المهموم الوحيد؟! ولم أحس أنني المسؤول عن كل ما يجري؟!

كيف صرت في قلب المعركة؟! وهل يراها المحاربون معركة، أم لعبة، أم متعة، أم فرحة، أم هدفاً وغاية؟!

ألأنه عمي؟!

ولم عليّ المواجهة؟! وما هو نصيب الربح أو النجاح؟!

أ أتغافل قليلاً حتى تعلن نتيجة الشهادة وأغادر القرية إلى أية جهة محتملة؟!

أم أشارك في اللعبة؟! الأمر الذي لم أستطعه إلى الآن.

وهل كان يتعلق هذا بي شخصياً أم بكل هؤلاء اللاعبين؟! وبهذه الأرض التي لا أستطيع التغافل عن لحظاتها، والتي أخشى أنها تلفظني؟!

وهل هي الغيرة من سليم الذي عرف كيف يستغل الظروف الجديدة، ويوغل في النجاح؟! أم حيادية واصف الذي انشغل أكثر، نهراً مع إحداهن، وليلاً في المرفأ؟! أم الاستفزاز الذي يسببه نشاط مبروك بعيداً عن رأيي أو رغبتي أو موافقتي؟!

أم هو النداء الغامض الذي يرفرف حول الوقت الذي يعبر مستعيناً بضحكتها الناصعة، وحيويتها النابضة بألف تساؤل ومعنى؟!

وهل كل هذا جعل قرار تأجيل الزيارة/ المواجهة لا يصمد طويلاً، وقرّب الموعد بحيث صار همماً ضاغطاً لا ينثني.."

التردد يعكس حالة من الضيق والحنق والاكنتاب لاحظها والد نبيل، وتساءل بهدوء وخوف، وفسرتها أمه اهتماماً بسهام، ونالت منها ومن السبب الذي (أتى بها وبأبيها إلينا وعكر علينا حياتنا، وأن هذا الذي يجري مدروس ومخطط له من أمها، تلك التي تبقي نفسها بعيدة لكن خطتها تسير بإحكام).

وفسرها آخرون خوفاً من النتيجة التي تقترب.

القلق والتوتر على أشدهما، والطريق التي كان يحفظها عن ظهر قلب، وكانوا ثلاثتهم يعبرونها بكل تعرجاتها وأشواكها وحجارتها دون تعثر، توسعت مضابقتها وكثر عابروها. وما زال يحفظ منها الكثير، لكن العثرات التي أصابته وأوشك على السقوط مراراً كان سببها الحالة المضطربة التي يعيشها تفكيره:

ماذا سيقول له؟! كيف سيناقشه؟! هل سيكون بمقدوره قول كل ما يتمنى؟! وهل سيكون كلامه مقنعاً ومبرراته منطقية؟! هل سيتردد في كلامه ويتعثر؟!!

كيف سيكون عمه؟! كيف سيستقبله؟! وماذا سيقول له؟! وكيف سيكون تقبله لما سيقوله؟! هل سيسمح له بقول كل ما لديه؟! أم سيعاتبه، وربما يوبخه، ويؤنبه، ويطرده؟!!

هو.. لا يعرف عنه مثل هذه المعاملة القاسية، ولا يعلم عنه سرعة الغضب والانفعال، لكن في ما سيقوله له الآن ما يمكن أن يؤدي إلى ثورته، وخروجه عن طوره، ولا سيما أنه لاحظ تغيراً ما في طريقة مقابله له، وبروداً في الحديث معه في المقابلات الخاطفة في البيت أو الطريق. ولعل السبب في ذلك سليم الذي أوغر صدره، وربما كان السبب نبيلٌ نفسه بابتعاده وتجاهله الظاهرة التي لم يعد الكلام عنها إلا إيغالاً في تأكيدها، وتعداد الدراهين والحسابات التي جاءت في محلها تماماً. على الرغم من محاولة آل التوفيق التقليل من أهميتها وبث الإشاعات المغرضة التي لم تلق أذناً صاغية، وليست سوى تبرير عن واقعة الفراش التي هزت عرشهم، وقوضت أساس الثقة التي كانوا يحاولون ابتناءها من جديد.

أشواك الوقت تتناوب في تأثيرها عليه، هو القابع غير بعيد عن الكهف، بانتظار أن يخلو من الزوار، ليستطيع مواجهة عمه منفرداً ووخزات الندم على مجيئه كادت، في أكثر من مرحلة، تجعله يقلع عن الأمر، ويعود أدراجه كما في مرات سابقة..

وتصور أن حالته بين الشجيرات كمتربص لشر، أو كلص ينتظر خلو المكان، تجعل منه صغيراً في نظر نفسه، وفي نظر من يمكن أن يراه، من القادمين، والراجلين، لكنهم، لحسن حظه، مشغولون بما يحملونه من هموم وأمنيات، ومن آمال وآلام. وهم على كل الأحوال أكثر راحة منه، لأن لديهم الثقة والجرأة والأمل، أما هو فليس يملك إلا الشك والتردد والقلق والحيرة حتى هذه اللحظة التي تتناسل بصعوبة بالغة.

-٦-

كان الغروب قد بدأ يهيمن على المنطقة بعدما تجاوز السفح الشرقي، ويغافل السفح المقابل متنقلاً فوق نتوءات الجبل، حين بدا لنبيل أن الساعة قد أزفت.

ولم يكد يلج عتبة الكهف حتى أوقفته المفاجأة التي كادت توقعه أرضاً، أو تعيده من حيث أتى، لولا أن عمه واجه دهشته بطريقة لا تخلو من مهارة ودربة وخبرة.

-أهلاً عمي نبيل، من زمان... أين أنت يا ابن أخي؟!!

مد يده مرحباً، وما تزال باليد الأخرى الأوراق النقدية التي كان يعدها.

-ولداً عمك سيغادران قريباً، أتفحص إن كان لدي ما يحتاجانه؛ هل تحتاج شيئاً يا عمي؟!.

-شكراً.. شكراً.

في كل ما مضى لم يقدم له أو لأخوته أو أبيه مثل هذا العرض.

-إيه يا عمي نبيل، كيف يمكن للإنسان أن يؤمن كل ما يحتاجه الأولاد، تعرف، بيتان: بيت هنا وبيت هناك؛ هنا مصروف وهناك مزراب! لا أحد يقدر ولا يرحم. كله هات.. هات..!

اجلس اجلس يا نبيل..! فرحت بمرآك، أين ولدا عمك؟! أنا قلت لهما ساعة أتيا أن ابن عمكما نبيلاً "زين الشباب، فهيم ومهتم، وليس مثل بقية الشبان، يمكنكما أن تعتمدا عليه..! كيف وجدت مبروكاً؟ بييض الوجه آه؟! أم أنه غير ما أظن؟! في الحقيقة أنا غير راض تماماً عنه وعن إخوته، امرأة عمك صعبة وهي تؤثر فيهم. تعرف يا عمي، كنت غائباً عن البيت في كل الأوقات، شغل.. شغل، وهذا له ثمن، ابتعد الأولاد عني، وابتعدت عنهم.

هم يستمعون إليها ويستشيرونها أكثر مني، لكن (سهام)، كيف وجدت (سهام) أظن أنها غير إخوتها. إنها أقرب أولادي إليّ.

على الرغم من كونها بنتاً، والمفروض أن تكون علاقتها بأبها أقوى كما هي حال أختها. لكن أرى فيها أشياء وخصالاً لا تشبه أمها بها، إنها تشبهني، أحس أنها كذلك، وتشبهكم، أنا وأنتم، إي ما رأيك يا نبيل؟! كيف وجدتها؟! كيف وجدت ولدي عمك؟!.

-كل الخير والبركة يا عمي، الله يوفقهما، ويسترهما!

-جميل كلامك ومناسب، أنت ظني بك هكذا، تعرف أن تقدر الأمور، وتفسر المواقف.

انظر يا نبيل، انتبه إليّ يا عمي!

أنا تعبت وشقيت، تغربت وتعذبت كثيراً، غادرت لامعي ولا عليّ، وتنقلت من مكان إلى مكان؛ علمتني الحياة؛ عاشرت أصنافاً كثيرة من البشر، تحملت كلامهم ومكائدهم واتهاماتهم إلى أن تقاعدت، وجاءتني دعوة أبيك الطيب أخي الوحيد، فجنّت إلى هنا، أمشي (الحيط الحيط) وأطلب الستر والمغفرة من الله!

الله يا ولدي لا يرد طلب من يقصده صادقاً، ويحمل المسؤولية من يستحق. وأنا لا أرجو من ربي إلا أن يساعدي على أن أقوم بالمهمة والمسؤوليات التي نويت أن أتحمّلها صادقاً. إن شاء الله، هذا ليس منّة، ولكن الله قادر على أن يضع سرّه في أضعف خلقه.

كان الكلام يندفق دون توقف وبطريقة سلسلة هادئة.. مستسلمة كأنما حال اعتراف أو تطهير، لم تترك مجالاً أمام نبيل ليقول شيئاً سوى الموافقة بالرأس أو النظر المثبت في الوضع الذي وجده أمامه، والذي لم يتوقعه.

-صحيح يا ولدي أن الإنسان مخلوق ضعيف، لكنه صعب متكبر ومتغطرس ومكّار، وعلى المرء كي يواجه البشر، ويعيش الحياة بكل فصولها السوداء والبيضاء أن يكون قادراً على حمل المسؤولية مستعداً لبذل الجهد في سبيلها؛ أنت بعد فترة من الزمن سترحمني؛ ستقول عمي قال كذلك، وعمي فعل كذا، وستجد أن في الناس من لا تستطيع مواجهة غدره، أو تحمل سطوته، ولا بد من التعامل معه بطريقة مختلفة. الاستكانة لا تحمي، ولا المنطق في أحيان كثيرة. هناك سُبُلٌ لا تُعرف، ولا تُسلك إلا بالإلهام والموهبة والصفاء الداخلي والتقرب من الله.

هناك حالات يا ولدي، تجد نفسك عاجزاً عن القيام حيالها بشيء، وتحسب أن كل الدروب قد سُدت في وجهك، لكن الفرغ يأتي بالصبر والمثابرة والتقوى. المهم أن لا يقعد المرء رافعاً يديه إلى السماء ويطلب الحل، السعي ضروري، (اعقلها وتوكل)، (واسع يا عبدي لأسعى معك).

حاول نبيل التدخل أكثر من مرة، لكن سيل الكلام منعه.

-أعرف يا نبيل أنك ذكي وتحلل الأمور!

ضحك قليلاً:

-صحيح أن المحيط الأطلسي كان اسمه بحر الظلمات حتى تم عبوره، فلم يعد للظلمات بحر، صحيح، هذا صحيح، ولكن لا بد لاكتشافه من أمر أو تقدير.

"ما الذي أعلمه بهذه الحجة؟! كنا نتناقش، وقلتها مرة حين حاولت إقناع سليم، بحضور واصف، أن الإنسان عدو ما يجهله، وأن العلم في سبيله لحل ألغاز كثيرة، الأحلام التنبؤية، التجييل، ... لا بد أن سليماً أخبره.. هل اكتفى بذلك أم قال أشياء كثيرة أخرى، ربما لم أقلها.."

-هذا الكلام قلته يا عمي حين كنا... .

-أعرف.. أعرف، أنا أتنبأ لك بمستقبل عظيم؛ من تكون هذه بدايته وأفكاره، وهذا منطقه، لا بد سيصل إلى مرتبة محترمة. لكن.. أعتقد أن الوقت لازال باكراً للتفكير في مثل هذه الأمور، إضافة إلى أنه يجب عدم الوقوف عند الأفكار والتشبث بها، غداً ستكتشف- كما حصل معي وكنت أفكر بطريقتك ذاتها، وأقضي الوقت في التحليل والتركيب والتفسير- أن كثيراً من الأفكار تتغير، وكثيراً من المبادئ يتم تجاوزها حتى من قبل من اخترعها، وقضى شطراً كبيراً من حياته في سبيل تحقيقها.

ضحك من جديد:

-وسترى كم ستضحك من نفسك حين تتذكر هذه الفترة!

-ولكن يا عمي، هناك أشياء كالمسلمات، ومن غير المعقول أن نعود في كل مرة للبدء من جديد.

-هذا صحيح، هذا عين العقل، الحياة والموت مثلاً، أليسا حقيقتين؟!؟! هل يمكن أن يفكر ينكرهما عاقل قبل؟! لذلك أقول إن التدقيق في كل شيء أمر صعب.

-ولكن؛ لابد للعقل أن يقوم بعمله، ومن غير المعقول أن نغلق عليه بالمفتاح، ونقتنع بكل شيء، ونصدق كل أمر!

-لا هناك أمور لا نستطيع الخوض فيها لأنها أكبر منا، ولا يمكن أن ندّعي لأنفسنا أكثر مما نقدر؛ حتى العقل يقع في الوهم، حين يظن أنه قادر على تفسير كل شيء.

-إن وجوده يقتضي تشغيله وإطلاقه.

-هذا صحيح، ولكن هناك أمورٌ يعجز العقل عن تفسيرها، فمن غير المعقول أن نرفضها أو نقف منها موقف التشكيك أو العدا، وهي حقيقة... للناس كرامات ومنازل، للمؤمنين منهم طبعاً، ليس من الممكن أن نعرف كل ما يتعلق بهذا الكائن اللغز.

سمعت أنك منشغل بهذه الأمور، واكتشفت بنفسك صدق ما قاله- ذلك الولد- ما اسمه؟!

-نعم ذهبنا وسألنا وحضرنا، اسمه لا أدري، أبو إبراهيم في جيله السابق..

-وتأكدتم أن ما قاله صحيح، والأشياء التي دل عليها لا يعرفها من كان في سنه، ولم يكن أحد يعرفها.

-لقد قال أشياء عجيبة، لم تكن لتصدقها في البداية،

-سمعت أنكم شكّكتم في الأمر، وهذا حقكم ولكنكم تأكدتم بأنفسكم

-قضية التجييل يا عمي، أو التقمص تحتاج إلى مناقشات. ودراسات لمختلف الحالات، للربط بينها والوصول إلى استنتاجات مقنعة.

-لا يا ولدي، هناك كثير من الأمور.. تحتاج إلى تسليم، ولا يمكن أن تدخل في نطاق التفسير، لأنها فوق علمنا نحن. "وفوق كل ذي علمٍ عليم" صدق الله العظيم.

على كل حال أتوسم فيك الخير، فهذه النباهة لابد ستعطي ثمارها لكن أرجو أن تستغلها في متابعة الدراسة، ولا تشغل نفسك بمثل هذه الأمور؛ الآن على الأقل.

أتمنى من كل قلبي أن يكون لأولادي التفكير ذاته، ولكن لا بأس أنت مثل أولادي، وأتمنى أن أراك دائماً.

بالمناسبة هل سمعت شيئاً عن نتيجة الشهادة؟! لا خوف عليك أنت وأستطيع أن أبشرك من الآن بنجاح مرموق.

ضحك أكثر:

لا تسألني كيف عرفت! وأنت ستصدق هذا! أليس كذلك؟!

أقول لك من الآن مبروك نجاحك، ويجب أن تفكر في مستقبلك، وتترك الأمور الأخرى. والآن ما رأيك أن نكمل السهرة عندنا، مبروك وسهام سيسران بك..

-أشكرك يا عمي.. لا أستطيع، لقد تأخرت..

نظر حوله:

-حقاً.. لقد عم الظلام، لم ننتبه، أخذنا الكلام، اذهب يا عمي اذهب! سينشغلون عليك؟! هل قلت لهم أنك هنا؟!!

-لا.. لا أحد يعرف..

-انتظر سأذهب أنا أيضاً، سأصحبك معي، لم يعد البقاء هنا مفيداً، لقد تعبت، العمر له حق، وللوالدين حق أن نجلس معهما قبل أن يغادرا. لم يبق الكثير على ذلك. أنهض بنتاقل قامته المدينة، وكرشه البارز:

-امش يا ولدي- امش يا الله يا كريم!

-٧-

كيف يضيق الوقت ليصبح غصاتٍ تترى، وشوكاً يتقاذف في الأمداء، فتغدو الأمكنة شباكاً، والاحتمالات تشوهات تتناوب في سراب الجهات.

فهل كانت هذه الحالة سبباً في ذهاب نبيل إلى هناك، وهل كان ذلك قراراً واعياً بعد أن علم أنهما سيغادران قريباً كما أخبره عمه، وبعد أن تشجّع من كلامه عن سهام؟!!

أم تدخّل به ما يتوارى خلف لحظات اليقظة، أم المصادفة عينها أم القدر وحده؟! كانت الشمس تميل باتجاه الغرب، والنهار الذي تطاول كثيراً قد بدأ يتضاءل، والدروب أقفرت وتكاد تخلو من الخطئ وتستعد لإعادة من شاركت في نقلهم إلى الغابة والبيدر والنبع البعيد.

والبيت الذي يلتهم بمنافذه البلورية، وألوانه الناصعة التي تتوهج معيدة الأشعة الحادة التي تتلقاها إلى الأنحاء..، استطاع أن يخطف اللحظة من نبيل ويجذبه إليه، تاركاً أمر تحليل ومناقشة الأسباب والدوافع والنتائج لأوقات أخرى!

كان البيت خالياً إلا من حضورها، وأتوناً لولا فتننتها، ومقفرأ لو لم يجعله عطرها وإفتها ودوداً رحيماً.

-تأخرت يا نبيل!

-حقاً؟!!

-سنسافر قريباً.

-كل شيء يأتي ويذهب!

-هناك فرص لا تتكرر.

-إلا إذا كان مقدرأً.

ضحكت ضحكة فاترة:

-أرى أنك تتحدث مثل أبي!

-وما الذي يمنع؟!!

-ما أعرفه أنك لا تحب أفكاره.

-من قال ذلك، هو؟!!

-لا.. لا نتكلم في هذا الأمر.

-إذن..؟!!

-لا شيء يبقى مستورا.

-وماذا عنك؟!!

ارتبكت قليلاً:

-ماذا تقصد؟!!

-أقصد هل تعجبك أفكاره؟!!

-أنا أحب أبي:

-وأنا أحب عمي.

-عمك فقط؟!!

رد بضحكة فاترة:

-ما زال محور الحديث.

-هل جئت لتقول هذا؟!!

حدجها بنظرة كاشفة:

-متى سترحلان؟!!

-بعد أيام قليلة.

-ومتى تعودان؟!!

-مازلنا هنا!

-كيف وجدتما القرية؟!!

-لم نكوّن فكرة نهائية.. بعد!

-وهل الوقت الباقي يكفي لتكوين مثل هذه الفكرة؟!!

-طالما هناك وقت، هناك احتمال.

احمر الجمر، فالتهب اللحظات، وضجّ المكان بالأصدا، ودفعة واحدة وجد نبيل نفسه في قوّهة مدفع، وإصبعه على الزناد؛ المدفع قديم، والصدأ يغلف كل شيء،

ليس متأكداً من صلاحية الزناد، ولا من جدوى الإطلاق أو غايته، ولا من قدرة الأمان على الاحتفاظ بالحالة كما هي..

-هل تشرب المته؟!!

-هل اعتدتِ شرابنا؟!!

-ليس بعد!

سأل بانقباض:

-إذن لماذا اخترتها؟!!

-تتيح وقتاً أطول:

انفجرت أساريره:

-أترغبين في وقت أطول حقاً؟!!

قالت وقد أصبحت واقفة:

-لدينا قهوة وشاي وزهورات...

-لا بأس بالمتة!

"هل تأخرت حقاً أم هل بگرت؟!!

تبدو فتاة أخرى، أين الحيوية والمرح؟! ظننتها لعوباً كبنات المدن، كفتيات بيروت..!

لا أصدق أنها سهام التي تمازح كل الشبان، ظننت أن هذا الرأس الصغير غير قادر على التفكير.. لماذا لم أكتشف هذا الذي أراه الآن؟! وهل حاولتُ قبلاً؟! هل جربت التقاءها وحيدة؟!!

ما الذي منعني من ذلك؟!!

عمي الشيخ مرزوق؟! ما ذنبها؟!!

مراهقة وفراغ مبروك؟! ما علاقتها؟!!

صعوبة أمها وعلاقتها الشائكة بأبيها؟!!

أمي وحساسيتها تجاههم؟!!

أبي وعدم تعلقه بهم، على الرغم من حبه لأخيه ودفاعه عنه؟!!

هل تأخرت حقاً؟! أم هل بكرت؟!!

وهل كان عليّ القدوم الآن؟! وماذا سيكون موقف عمي مني لو جئتُ إلى هنا قبل أن أذهب إليه؟! هل كان سيتغير؟! وموقفي منه هل من الممكن أنه كان سيغدو مختلفاً؟!!

التقت بتوتر، فرأى باباً موصداً؛

ترى هل هي الغرفة التي قالوا عنها الكثير؟! هل أسألها عنها؟

وهل الوقت مناسب لذلك؟!!"

-أين نشرد؟!!

سألته.. وهي تضع صينيّة أنيقة وأدواتٍ مميزة للمتة.

أجاب بارتباك:

-أشرد؟! لا.. لا شيء كنت أقطع الوقت!

أشارت إلى حيث كان ينظر:

-هذه غرفة خاصة!

-لك؟!!

-لا.. لأبي:

-ماذا فيها؟!!

-كتب ومخطوطات ورسائل، لا يدخلها أحد سواه.

-هذا حقه!

-أنتَ مع عمك إذن؟!!

-أنا مع حقه في أن يكون له خصوصيات.

أضافت وهي تصب ماء ساخناً في كأسه:

-وكيف حال عمي أنا؟!!

-تقصدين أبي:

-ليس لي عم غيره.

-يحب أخاه.

-وأُمك؟!!

-تقصدين امرأة عمك؟!!

هزت رأسها موافقة.

-بخير!

قالت متناولة كأسها دون أن تنظر إليه:

-لماذا لا تحبنا؟!!

-من قال ذلك؟!!

-وكيف حال صديقك؟!!

-سليم؟!!

-ابتسمت وهي تضع الكأس على الصينية:

-كيف عرفتَ أنني أقصده؟!!

-لأنه على علاقة قوية بكم!

-تقصد بأبي؟!!

-ألا يزورك كثيراً؟!!

مبدئياً انشغلاً بتناول كأسه وامتصاص بعض ما فيه.

-حين يكون أبي!

ثبت نظره في عينيها:

-وما رأيك أنت فيه؟!!

-اسأل عمك!

أجاب بسرعة، وهو يضع الكأس على الصينية:

-لن أسأل أحداً.

-لماذا؟!!

رافعاً رأسه وزاماً شفثيه:

-لأنه لا يهمني.

-سمعت أنكما على خلاف دائم؟!!

-نحن في حال نقاش دائم.

-ولكنكما لا تتشابهان!

-هل هذا مديح أم ذم؟!!

-ولماذا عليّ أن أحدد؟!!

ضحك

-تذكريني بوصف،

-ووصف، نعم كنت سأسألك عنه!

-مشغولٌ بنا ومنشغلٌ عنّا..!!

-يعيش على خلافكما.

-ليس يقصد ذلك؛ لديه ما يشغله في البيت وخارج البيت.

-سمعت عن حلقتكم الثلاثية ولقاءاتكم، ولماذا تفككت تلك الحلقة؟!!

-تغيرت الظروف.

-وأنتم، ألم تتغيروا؟!!

-أنا على الأقل لم أتغير.

سألت بسرعة مثبتة عينيها في عينيها:

-ولن تتغير؟!!

-في أي ظرف؟!!

-بعد زيارتك هذه؟!!

-بأي اتجاه؟!!

-بأي اتجاه.

-لا أعرف، لا أجزم.

-ولا ترغب؟

-وهل ترغبين أنت؟!

-أنا ما علاقتي؟!

-أليس لك علاقة؟!

-لا أعرف، لا أجزم.

-أما أنا فأجزم.

-تجزم أن لي علاقة؟

-طبعاً وإلا ما كنت هنا الآن!

أطرقت في الأرض برهة، تغيرت ملامحها، بدا عليها الانقباض وقيل أن يفكر بالاعتذار أو الندم، رفعت رأسها، نظرت إليه نظرة انكسار:

-نبيل!

-نعم، سهام..

أجاب بلا وعي، متردداً محمراً.

-أريد أن أسألك سؤالاً..

أحس بانهمار شأبيب غامضة على أرض متشقة.

-اسألي ما تشائين!

-هل تصارحني؟؟

-لم لا أصارحك؟!

-هناك أمر يعذبني.

-هل يمكن أن أريحك؟!

-نعم، بالتأكيد.

-قولي إذن.. ما هو؟!

نظرت إلى الأرض، فركت يديها، نظرت إليه مجدداً:

-ما قصة شهلا؟!

-يتراجع نبيل كالمسوع، المفاجأة والصدمة والخيبة.

-أية قصة مقترباً ومنشغلاً بالمتة.

-وعدتني أن تساعدني؟!

-أية قصة تعنين؟! ومن هي شهلا؟!

-ما علاقة أبي بتلك القضية؟!

-أبوك؟! عمي.. له علاقة؟! لا .. لا أدري!

-نبييل، أنا أثق بك!

-من قال لك مثل هذا الكلام؟! كيف تستمعين إلى مثل هذه التفاهات؟!

-لماذا ترك أبي القرية؟!

-تطوع

-لماذا تطوع؟!

لم يكن هناك عمل.

-ولماذا انقطع عن القرية كل هذه المدة؟!

-هذا أمر طبيعي، عمله وزواجه، وغيره كثيرون انقطعت علاقاتهم بالقرية، إخوتي، أولاد أم سعد.. وها هو قد عاد، وصار أشهر من في القرية بل المنطقة.

-وما رأيك أنت بما هو فيه الآن؟! بصدق يا نبيل؟!

-هذا سؤال كبير، وتعرفين موقفي.

-إذن، لماذا فعل أبي هذا؟!

-اسأليه، أنا لا أعلم السبب.

-يقولون أنه عمل هذا ليغطي قضية أكبر!

-من الذي قال؟!

-لا شيء يبقى سراً في المسكونة!

-ثرثرة نساء على التنور.

-ورجال على البيدر!

-أنا لا أعلم لي.

أطرق في الأرض، شرق كأس المته الفارغ مرات، ويستمر الصوت الخارج من الكأس..
وضعه على الصينية:

-دائمة..

ونهض واقفاً..

-إلى أين يا نبيل؟!

-تأخر الوقت، قد يأتي أبوك أو أخوك.

-وإذا أتيا؟! أنت لست غريباً!

-أحس بعض التعب، لا أريد أن يرياني على هذه الحالة.

وقفت أمامه:

-نبيل! انظر إليّ! ضع عينيك في عينيّ!

-ماذا يا سهام؟! أريد أن أذهب، أرجوك، نكمل الحديث في ما بعد.

-لم يبق وقت كثير، سنسافر.

-مع السلامة!

-لا.. أريد أن أراك. لدي حديث معك!-

- إن شاء الله. إن شاء الله..

-ستأتي غداً؟!

-إن شاء الله..!

-وعد يا نبيل؟!

أدار ظهره ومشى، وعند الباب نادته بصوت رقيق حنون:

-نبيل!

-نظر إلى الخلف بانجذاب كانت يدها اليسرى ممدودة، مَدَّ يده.. بتردد كانتا ساخنيتين، التحمنا،
تشابكت الأصابع والعيون، تحركت اليدان الأخریان. اقترب الجسدان، علت أصوات على
الدرب القريبة.

انتزع يديه وعينييه من يديها وعينيها، وانطلق خارجاً.

الفصل السابع

- ١ -

أيام الدّراس، علامات مميزة على وجه الصيف وقامة العام، أيام تختتم فيها مراحل بدأت منذ ثلاثة الفصول الأخرى، مع ما رافقها من آمال وآلام، من أمان وخيبات، من حركة وتوقف، فعل وانتظار.

والقرية التي لاكت سيرة المواسم طويلاً، كما تلوك كل السير الأخرى، تقعد بعد انتهاء الحصاد المضني والنقل الشاق إلى البيدر، تدحرج في الأفكار والأحاديث والأخيلة آخر الاحتمالات، بعد أن صار الجنى مكمّماً في مساحة ما فوق البيدر، ملمحاً بوجوده الحالي إلى خيبة أو غبطة أو تردد في إطلاق المشاعر سلباً أو إيجاباً. وترسل من يستقرئ أخبار أقرب الدّراسات وأكثرها إمكانية في أن تضع هذه المنطقة القاسية في حساباتها، وجدول أعمالها، قبل إيغالها في الجرد البعيد.

و"المسكونة" التي تعيش على الأخبار، تصحو وتضحى وتمسي وتنام، تترك كل شيء أيام الدّراس، لتتسغل معظم ساعات اليوم بمن جاء دوره، ومن فات، أو ينتظر، رجالاً شباناً ويفاعون، في عملية الدّراس نفسها، ونساءً في تحضير الطعام والشراب واللوازم، وأولاداً في التواجد مقتربين ومبتعدين أو مُبعدين. أيام الدّراس مناسبة لإضفاء المشروعية على كثير من الأعمال التي لم تكن مشروعة، ولخلق المبررات والأسباب لأمر عديدة تنتظر مثل هذه المناسبة.

فتترك الواجبات العادية والخروج من البيت، والتأخر في العودة إليه، نهراً وليلاً، واللقاءات التي يمكن أن تتم في البيدر وعلى الدروب وفي حرم الحركة الدائبة، وعلى ضفاف ظلال الضوء الواهن الذي تبده قصاصات القش الكثيرة وغبار الزروع، ويمتص الظلام العنيد الذي يتربص من كل الجهات..

كلها أمور تجعل من الدّراس.. طقساً أقرب إلى التقديس، وكصلاة شكر وتقرب في ختام مرحلة طويلة حافلة بالذنوب والتوبات والأضاحي. ولأيام الدّراس أبطالها وبطلاتها، منافساتها وانتصاراتها وخيباتها. يقل الكلام ويزداد الفعل، وتبرز إمكانيات وتنوس أخرى، وتتغير ظروف المعارك وأسلحتها وفرسانها، فللرجولة مكان، وللعضلات ميدان، وللفتوة أصداء.

تلتهم نجوم أهمها سمير وجمال. ويخف بريق أخرى كسليم ونبيل. بينما يظل واصف ينتقل بين البيدر والمرفأ حاصللاً من الدّراس على أشياء يمكن الاستفادة من ظروفها.

ينتقل سمير وجمال وسواهما من كومة إلى كومة، ومن دور إلى دور، يعلو ذكرهم ومديحهم وشكرهم من كل لسان، حتى تغريد وسعاد وأخريات يجاهرن بالتحدث إليهم وعنهم، وحتى اللقاء بهم في أوقات الاستراحات.

ويقتررب سليم ونبيل وبيتعدان منفصلين أو مجتمعين مع واصف، لكن علائم الهزيمة واضحة، رغم عدم مشاركتها في المعركة التي تتطلب مقاتلين من نوعية أخرى.

وهذا ما جعل المنافسة بينهما تحدثم على جبهة مرزوق، خاصة وأن مبروكاً منشغل بالدراس أيضاً، أو منشغل بتغريد، مستفيداً من الأجواء التي تفرضها طقوس هذه الأيام، وحرية التنقل من البيت إلى البيدر، وخلو بيت تغريد من سكانه، ولعل دخول مبروك في الحلبة خفف من حدة الاهتمام بتغريد لدى الآخرين، وصار التفكير يتجاوزهما إلى أسماء لم تكن على سلم الأولويات حتى ذلك الوقت، بعد ما خاب الأمل في حلم مدني لم يعمر طويلاً.

وتناوبت سليماً ونبيلاً الخيبات والانتصارات في ساحات أخرى غير ساحة البيدر المهزومين فيها سلفاً. كان سليم يحقق حضوراً ملحوظاً عند مرزوق، خاصة في الكهف هذا الذي جعل نبيلاً يزيد من حنقه على عمه وغضبه منه وتحامله عليه، فقد أفضل وجود سليم مع مرزوق محاولات عدة لانفراد نبيل مع عمه، وتنفيذ إصراره على قول ما يشعر به، ذلك الذي لم يتمكن من قوله في زيارته تلك: في هذا الوقت، كان نبيل يتقدم بخطأ سريعة على الدرب الأخرى في اتجاه سهام، على عكس سليم الذي لم يلق منها وجهاً بشوشاً، حتى عندما كان يحاول زيارة البيت بوجود أبيها، محاولاً الاستفادة من موقعه عنده، وهذا ما زاد من تعلقه بمرزوق /الشيخ حتى صار ملازماً له في جل أوقاته.

الزمن مسير متواصل، متسارع حيناً، ومتباطئ حيناً آخر، حسب انشغال الكائن عنه، أو انتظاره له، الكائن الذي لا يملك تجاه عناده أو حياديته، إلا أن يخفض الرأس صاغراً لمشيئته. ويمكن في أوقات مختلفة أن يغير المحطات كسراً للرتابة، أو رغبة في التلويح الذي يحمل الملل على الانحسار والتبعثر، ويلقي في الماء الراكد حجراً يطلق دوائر تتوزع السطح فترة ما من الزمن.

لكن تغيير المحطات لا يتم دائماً برغبة، وإنما نتيجة أحداث ووقائع ومواقف وعلاقات تجعل من المستحيل التوقف في المحطات ذاتها، والاستراحات عينها، ويصبح لا بد للتكيف مع الأوضاع والحالات المستجدة أن يتم البحث عن ظلال أخرى، وأفياء مغايرة.

ونبيل صار عليه أن يقضي ساعات النهار الصيفي الطويلة وحيداً. بعدما تفسخت العلاقة الثلاثية، وتوزعت أثارها كل في طريق.

ضافت عليه القرية ببيوتها التي لا يزور معظمها، وشبانها المشغولين بأفكار وأشياء لا تروق له، وبناتها المشغولات بمن يحسونهم أقرب إليهم، أو إلى صفات الرجولة، والسواعد المفتولة، والمزاج الثقيل، والوقت المديد.

ضافت عليه القرية بانشغالاتها وأحاديثها واهتماماتها المستجدة. وضاق البيت الذي لم يعد هادئاً فقد استشرى خوف الوالدة وقلقها ووصاياها وأفكارها حول بيت عمه وتفاقت حيرة الوالد وعدم رضاه عن الحالة التي أوغل فيها أخوه. تلك اللعبة التي لم يكن واثقاً من صحتها، ولا متأكداً من

كذبها. مما جعله يعيش فصولها مصداً لرياحها ومرجعاً لأصداء ما يجري. كأنما هذا قدره الذي كتب له منذ الصغر.. حيث تركه أخوه في بركة الفضيحة، يتلقى الأسئلة والأقوال والتهم والمواقف التي كان على أخيه مواجهتها.

فما الذنب الذي ارتكبه هو إلا أن كان أخا مرزوق؟

وهل يحاسب المرء على أمر لا يستطيع رده. ولم يكن مسؤولاً عنه أصلاً، لكن الكلام كله لا يفيد.

وجاءت العلاقة الفاترة بل المقطوعة بين ابنه وأخيه، لتحرك النار في اتجاه جديد لم يفكر فيه، ولم يحسب له أي حساب.

الكهف الذي كان موئلاً للثلاثة، صار مقراً للشيخ مرزوق وسليم والمراجعين والزوار.

والطرق لم يعد ممكناً التحرك فوقها إلا في أوقات الغروب، أما في الظهيرة التي تمتد ساعات، فإن المسير تحت سياط الشمس الضارية غير ممكن، ولا معقول أو مقبول.

في حمى هذا الصيف، برزت أفياء سنديانات الحاكرة مكاناً فسيحاً ومستظلاً عذياً.

لم تكن جديدة عليه بل كانت أماكن اللهو المفضلة في الطفولة المبكرة. يجتمع فيها مع أترابه، ويلعبون كيفما يشاؤون وكما يحبون، لا يزعجون، ولا يضررون سوى بعض العجائز الذين يهربون إليها، يستذكرون الأيام التي درست، ويلوكون ما كان لا زال حاضراً في البال.

هنا موسم مهم ومناسبة معتبرة، حين يأتي المبيضون، أناس غرباء، أشكالهم ولباسهم وأحاديثهم، حتى عملهم كان يبدو غريباً.

لحضورهم وقع جديد، إذ يدب في القرية نبض آخر، ويسري انشغال، وتتلون الأيام بالألوان أكثر نضارة وحيوية، وتصبح سنديانات الحاكرة الهدف والغاية والزمان والمكان طوال فترة مكوث المبيضين أولئك.

حركة متواصلة على الطريق المؤدية إليها ذهاباً وإياباً، القدور والأواني النحاسية فوق الرؤوس، أو في الأيدي والأكياس، حركة فيها افتعال أو مباهاة أو مبالغة للفت الأنظار القريبة والغريبة.

لكن الحركة المثيرة أكثر، والتي لا تروح من الأذهان، تلك الحركة المكوكية التي يقوم بها المبيضون بأقدامهم الحافية في القدور، حركة مستمرة طريفة مدهشة لا يمل الناظر من متابعتها، مع ما يرافق ذلك من سوائل قاتمة كثيراً ما تساءل الأطفال عن سببها، وكيف يمكن أن تستخدم هذه الأواني للطعام بعد هذا الذي يحدث.

لكن الشكل الأخير الذي تظهر القدور شديدة البياض من الداخل، يعطي الثقة للجميع، ويبرر تسمية المبيضين بهذا الاسم، بيد أن صور الأقدام المتسخة التي تدور في المكان الذي سيوضع فيه الطعام، تظل دائرة في الرؤوس، وربما أعاققت مضغ الطعام الذي صار مؤمناً من التسمم

المعدني المميت، هذا التسمم الذي حصل في مناسبة الفراش في ما بعد، وكان أن غير معالم كثيرة، وخلق ظروفاً وحالات لم تكن في الحسبان، أو هيأ لها على الأقل.

قالت أم سعد يومئذ: "طبيعي أن يحدث مثل هذا، الأواني لم تعد تبييض، والمسكونة، لم تأكل لقمة نظيفة منذ أن غادرها المبيضون آخر مرة، ولم يأتوا بعدها.

صحيح أن ما فعلوه لم يكن.. مقبولاً. ولكن ما ذنبهم إذا كانت الفتاتان ذهبتا معهن بموافقتهم. هم لم يخطفوهما، والدليل على ذلك أنهما أخذتا حوائجهما، لكن الناس هنا لم يصدقوا، أو لم يريدوا أن يصدقوا. لأن إحداهن من آل التوفيق. فانتقموا من المبيضين الذين جاؤوا في الموسم التالي، ومن كل المبيضين الذين أتوا إلى المنطقة بعد ذلك، حتى بقيت قدورنا متسخة، نأكل منها سنوات طويلة دون تبييض، ولا من يحزنون.

صاروا يأتون بقدور جديدة يقولون أنها لا تحتاج إلى تبييض، لكن أنا لا أصدق ذلك ولا أستعملها، أنا أبيض مقلاتي وطنجرتي بنفسني، وحسب معرفتي".

هنا تحت هذه السنديانات ابتدأت تلك الحادثة، ولم يعرف عن الفتاتين خبر في ما بعد، ذهب من يبحث عنهما وعادوا خائبين ومن ثم صار المكان منبوذاً، أهمل وهجر وانتقلت أوقات الراحة إلى جهات أخرى. وادّعى كثيرون وكثيرات أنهم رأوا أشباحاً تشبه الغائبتين في تلك المنطقة التي لا تبعد عنها المقبرة كثيراً، مما زاد في تحول هذه البقعة إلى مكان منبوذ..

كان يمكن لنبييل إحضار كتاب معه، قصة أو رواية أو سيرة شعبية.. يقرأ حيناً، ويفكر أحياناً في ما آل إليه الحال خلال أشهر معدودة. ولم يكن ذهابه إلى هناك يمر دون قلق والديه، واستغراب أهل القرية، واستهزاء أترابه، وكثيراً ما مروا به ليقولوا ساخرين:

-هل تنتظر الفتاتين بعدما خسرت تغريد وسهام؟!

-الشاطر يذهب إلى البيدر أو إلى العين؛ لكن هذا يحتاج إلى رجال، إلا إن كنت تريد أن تحصل على عروسك من الكتب والقصص، وربما تأتي إليك شهرزاد لتحكي لك الحكايات، أو تجد خاتم سليمان والمارد والذي يقول لك (شبيك.. لبيك..)

ويقولون: سجل نفسك مع المصمودي وإخوته، وأم سعد وسواها. لقد عجّزت يا نبييل قبل أو انك.

وضحك آخرون: هل رأيت مناماً أمرت فيه أن تأتي إلى هنا أنت أيضاً يا شيخ نبييل؟ لا بأس الشيخ مرزوق في الكهف، والشيخ نبييل عند سنديانات الحاكورة، وأبوك أين سيذهب؟! عائلة أولياء اللهم زد وبارك.

-٣-

شروخ في الحيطان الواقعة بلا ثبات.. ثقوب في القيعان العميقة، تحورّ في الألوان، تشوّهات في الهياكل والأشكال والترانيب. فالتراكم والتغير ومرور الزمن، وتناوب الفصول جعلت في النفس نوبياً، وفي الروح أخاديد، وفي الأجساد ترهلاً وعجزاً، وفي المنعطفات عنفاً فتضيع الدروب، وتشرّد الخط، وتتعرج الخطوط، وتتفالج الرؤى، وتتهالك الأحلام وتنوس الرغبات، ويصبح كل

شيء واهناً هزياً بارداً مبتعداً. وتختصر الحياة ودروبها ومساراتها وجداولها بركة صغيرة أسنة، أو فترة استغلال تحت سنديانةٍ معمرة. وتتمثل الحياة بحركة أنفاس لا تزال تجد القوة والسبيل إلى أنفاق أخايد وأعضاء تحتفظ بذكرى الاختلاج وترجع صدها..

كيف تتحول عباءة الزمن الذي حل وانقضى مزقاً غائمة الألوان، يستحيل مع حوافها المشرشرة، وخبوطها المدلاة جمعها كما كانت، فيتشكل منها ثوبٌ مشوّه الألوان والشكل، يقصر في أماكن عن الجسد الذي كان يستوطن، ويتناول في مواضع أخرى. مع ذلك فإن محاولات إعادة تشكيله لا تتوقف، خاصة بعد أن أصبح الوقت امتداداً بليداً في اتجاهات لا معالم لها، والمكان فسحة مليئة بشوك الانتظار العقيم والحجارة التي تستعصي على التحريك..

كيف تمضغ اللحظات والفم مغارة دون طوابع أو نوازل؟! كيف تُستدرجُ الذكريات؟ ولا شيء يغري أو يجدي في هذا الجسد الملقى، كيفما اتفق، في ظلّ تتغير حدوده دونما ضجيج، لكن السنديانة تبقى العائذ بها داخل جزيرة أمنة، دافعةً عنه أشعة عنيدة لا ترعوي إلا بانقضاء حيز آخر يُسجل على الكائنات الحية المختلفة بصرامةٍ لا ينفع معها النّقّ والرجاء في التمهّل أو العجلة، والتعافل عن أزيها الذي لا يرحم.. والانشغال بتمتمات تحاول إبقاء الشعور الذاتي بالتواجد قائماً.. ولولا حركة الشفاه، لحسب العابرُ بأن هذا ليس سوى فزاعة أوقعت أرضاً بعدما اكتشفت حقيقتها. ولما خطر بباله، أن حياة يمكن أن تظل مقتنعة بتمثلها هذا الهيكل المهدود، الذي يغمض فيه كل شيء إلا حركة الشفتين التي جعلته لا يسمع وقع خطوات القادم إليه، فتحرك دفعة واحدة منتفضاً بما فيه من بقايا قوة، حين سمع كلاماً:

-هل تتكلم في منامك يا مصمودي؟!

-أهلاً يا نبيل!

-أخفتك، أليس كذلك؟! ولكن أمثلك يخاف؟!

-أنا لا أخاف، لكنك فاجأتني.

-من تحدث؟! وماذا تقول؟!

-أتحدث إلى هذه السنديانة.

-وهل تبادللك الحديث؟!

-يكفي أنها تسمعني، دون أن تهرب.

ضحك نبيل:

-لا تجعلني أصدق أنك خرّفت

-هذا ما يقولون عني عند شجرة الخروب، أليس كذلك؟!

زفرات متقطعة:

-هذا لأنني لا أجالسهم، لا أحب أحاديثهم ولا أستسيغ نكاتهم الفاحشة، ولا أشاركهم في التعليق على فلان، والتندر بعلائن، والسخرية من الناس؛ هم يريدون أن أستمع إليهم، لكنهم لا يستمعون إليّ، لا يتركوني أكمل حديثاً أو حكاية.

-لا.. يا مصمودي. أنا أيضاً لا أجلس معهم إلا نادراً، لم أسمعهم يقولون عنك ذلك، لكن هذا ما قالته أم سعد، فقط أم سعد.

-والله هي التي خرّفت وجرّبت، تصور أن هذه الشمطاء أيضاً لا ترغب في سماعي.

-هل صارحتك بذلك؟! قالت لك ذلك عيناً بعين؟!!

-نعم.. قالت أنها مشغولة وليست (فاضية) لتسمعي، وقالت مهتوكة الشبية: اذهب إلى قردتك!

-ألا ترى أنها قرده أكثر منها؟!!

-من تقصد بذلك؟!!

-تقصد زوجتي.

-صحيح.. لماذا لا تتحدث إليها؟!!

-لا أحبها، لا أطيق النظر إليها، لا تسمعي.. ليست (فاضية) هي الأخرى.

-وما الذي يشغلها؟!!

-أولادها، كل واحد منهم وكل واحدة منهم صار له ولها قبيلة أولاد، ولا تزال تفكر فيهم، وتتنشغل بكل صغيرة وكبيرة تخصهم.

-حقاً.. لماذا لا تتكلم إلى أولادك؟!!

-مشغولون يا ولدي، كلهم مشغولون عني.

-وأولادهم.. أحفادك؟!!

-لا يستمعون إلي كثيراً، انشغلت بهم فترة من الزمن، لكني مللتهم، يريدون الكلام والشيطنة، أحب شيطنتهم، أتسلّى بها، يواسوني قليلاً، ولكن.. لا يستطيعون سماعي طويلاً، هم يريدون أن يتكلموا أيضاً. وهذا لا يناسبني. أريد أن أتكلم، وأريد من الآخرين أن يستمعوا إليّ، هل هذا كثير؟! فقط أن يستمعوا إليّ!

-أتحب الكلام إلى هذا الحد؟!!

-لمماذا تأخذون علي هذا الأمر؟!.. هل أنا وحدي من يحب الكلام، إن كل من في المسكونة يحبه.. وهذا ما يزعجني منها.. تظن أن جنأ يدغدغ الناس هنا- أو يكركرهم، أو يحكمهم من أسفل أقدامهم..

-إذن لماذا تلوهم إذا لم يسمعوك؟!!

-لا.. يا نبيل.. الأمر مختلف.. عملهم هذا شيطاني.. لا طائل من ورائه..

-وكلامك أنت!!

-يطرق قليلاً

-لا أعرف.. أنا أحب الكلام.. أريد أن أتكلم، وأن يسمعني الآخرون.. هل هذا كثير علي؟!

-إذن زوجتك وأولادك معذورون، فقد سمعوك زمناً طويلاً، وملّوا من أحاديثك

يستوي في جلسته بصعوبة، وينظر بأسى:

-لا.. لا يا نبيل، لا يا ولدي، أنا لم أكن أتكلم، قضيت عمري في العمل والشقاء. الفلاحة والحصاد والدّراس وضرب المعول والمهدة، كنت مشغولاً عن الحكي، الهموم والتعب والإرهاق لم تترك لي مجالاً للكلام.

-والآن تحاول أن تعوّض ما فاتك، الله يعين من يقع تحت رحمة حديثك!

أمسك العصا. وهزها في وجهه ثم أعادها إلى الأرض ورقت لهجته:

-حتى أنت يا نبيل؟! هل مللت أنت أيضاً؟! اذهب.. وارتح مني، ظننتك أحسن منهم؛ كلكم كذلك.. سأعود الحديث مع سنديانتي، مع حالي، اذهب يا نبيل اذهب.. " ما ذنبك لتحمل كلامي.

-لا.. لا يا مصمودي، لا تفهمها هكذا، أقصد أنه يلزمك زمن طويل لتعوض ما فاتك من كلام..

-هل تصدق أنني أملّ من نفسي؟!

- إذا نحن معذورون، أقصد الذين لا يودون سماعك؟!

-لا أدري، لكن أحب أن أتكلم، وعليكم أن تسمعوا، لتضحكوا عليّ لتأخذوني على قدّ عقلي حتى يأخذ الله أمانته.

-سلامة عقلك يا أبا مصطفى، أعرف أن عمرك ليس قليلاً، ولكنك صحيح الجسم وافر الحيوية يكاد الدم ينفر من وجهك..

-لا تضحك عليّ يا نبيل، أما ترى أنه لم يبق فيّ ما يُشعر بالحياة. أنا أحب هذه السنديانة لأنها خضراء، في أي وقت تأتيها تجدها مخضرة، أما أنا فسنديانة يابسة، لولا هذا اللسان لنسي الناس أنني أعيش، ولكنك قد سقت إلى الحرق منذ زمن.

-لا زالت لديك الحياة كلها.. طالما أنت تعيش، فكل شيء ممكن..

-لا يا نبيل، لا يا ابني، زمننا ولى وهذا زمن غيرنا، عشنا بما فيه الكفاية. أتعرف يا ولدي، حين أفكر بالزمن الذي مرّ، والأحداث التي شهدتها، والناس الذين انقلبوا من فوق إلى تحت، أو من تحت إلى فوق، والناس الذين كنت أعرفهم وماتوا، وكم تبدلت الدنيا، أحس أن عمري كبير،

حين أحاول أن أستعيده تذكراً فقط، أشعر بالملل، وأتساءل: هل صحيح أنني عشت كل هذا، وشهدت كل ذلك؟!!

-وذاكرتك كما أعرف لا تشكو من شيء.. وتذكر كل أمر بسهولة.

الحمد لله؛ بشكل لا يصدق إلى درجة أنني أنزعج من كثرة التفاصيل والأحداث.. أتعرف؟! بعد وفاة الجردى، لا أحد يمكن أن ينافسني في التذكر.

-كانت لديه قدرة كبيرة على استرجاع الماضي كما يقولون.

-كان يعلم الماضي والمستقبل.

-سمعت عنه ذلك، هل هذا صحيح؟

-نعم.. هذا صحيح؛ لقد كانت لديه قدرات غريبة، كان يُسأل عن الغائب والضائع، بشراً أو حيوانات، وعن المرضى، والسراقات والحطوط والأيام الطيبة والأسماء.

-يقولون أنه كان يضحك على الناس؟!!

-لا.. أزعل منك يا نبيل، من قال هذا؟! ظلم.. هذا ظلم! كان يقوم بكل هذا حين يطلب منه، ودون أن يأخذ شيئاً.. تصوّر لم يقبل حتى (سطل) لبن أو شيئاً من الشنكليش أو البيض، أو الدجاج البلدي.

-لماذا كان يقوم بذلك.. إذن؟ هواية أو قضاء وقت؟

-الله أعطاه.. وهو يعطي مما أعطاه الله.. خدمة لوجهه تعالى.

-وما قصة الحصاد والأفعى.. كنت حاضراً أم سمعت بها؟!!

-وصلتك هذه القصة آه.. لا يا سيدي كنت حاضراً، كنت ما أزال صغيراً كنا نحصد في مكان

بعيد جداً عن أية مدينة أو قرية أو بيت، وفجأة صرخ أحد الرجال، ليس من هذه المنطقة، بعدما

لدغته أفعى مؤلفة... وحين أحضروا دابة ليحملوه إلى الطبيب، صاح بهم الجردى: توقفوا!

وأمام دهشة الحاضرين من مختلف المناطق. أمسك يده الملدوغة، دار بإصبعه حول المعصم،

وتمتم بكلمات غير مفهومة.. ثم قال: الآن خذوه، وبعون الله لن يصيبه مكروه، وكان غائباً عن

الوعي ولم يظن أحد أن هذا الملدوغ يمكن أن يعيش، فهو ليس أول ضحية للأفاعي في هذا

الحقل البعيد. ولن يصل قبل ساعتين، أو أكثر، مسيراً تحت حر الشمس. وسيكون السم قد أخذ

طريقه إلى كل جسمه؛ لكنه عاد في اليوم التالي، وتحدث من كان معه أن الطبيب تعجب،

وتساءل عما فعلوا له حتى بقي السم في طرف اليد، دون أن ينتشر إلى أي جزء من الجسم.

-هذه الحادثة معروفة.. سمعتها كثيراً، هل له حوادث أخرى..

-شهرة هذه الحادثة أنها وقعت في مكان بعيد، وشهدها أناس من مناطق متعددة. وله حوادث

كثيرة ومهمة.

-وكيف كان هذا الرجل؟! أضحك أن منظره لا يوحي بقدراته؟!!

-كان رجلاً بسيطاً، لا يدعي، ولا يفاخر، ولا يتقاضى أي جزاء، ولا يتحدث عما يقوم أو يمكن أن يقوم به.. بل كان يخجل حين يتحدث الناس عنه أو يشيرون إليه. حتى وفاته كانت لغزاً محيراً.

كنت سأسألك عن ذلك.. سمعت أحاديث مختلفة.

-جاءه شخص في المنام، وقال له: ستموت بعد سبعة..

-أيام أو أشهر؟!!

-هذا ما لم يتأكد منه في الحلم.. لذلك أخبر إخوته وزوجته، وجهّز نفسه في نهاية اليوم السابع، لكنه لم يمت، وفي تمام الأشهر السبعة، لم يحدث شيء. وفي الليلة التي أكمل فيها السنوات السبع استحم، ولبس ثياباً نظيفة، ونام، ولم يفق بعدها.

-وما رأيك أنت بهذا يا عم (أبو مصطفى)؟!!

-رأيي أنا.. أستغفر الله، هذه أعطيات من الله، الله قدره ووهبه- نعماً زائدة، رأيي أنا..؟! ما رأيكم أنتم يا أصحاب العلم وأبناء المدارس والاجتماعات؟! أما زلتم تقولون أنها خرافات؟!!

-نحن لا نستطيع أن نصدق أشياء لم نتأكد منها..

-نحن رأيناها.. ألا نصدق؟ على كل هذا يعود إلى فكر كل إنسان، ودرجة إيمانه.

-ولكن أنا أصدق.

تصلبت عناصر وجه المصمودي، ونظر إليه باهتمام:

-تضحك مني؟! بالله عليك تصدق بهذا يا نبيل؟!!

-لا والله لا أضحك منك، أنا أصدق؛ ولكن لا أعرف التفسير!

-آه.. فهمت.. أنت مضطر أن تصدق!

-لا يا عم لا تفهمها هكذا، أنا لذي حالات لا أفهمها.

-حتى أنت؟! ما شاء الله.. العائلة كلها مكاشفة!

-لأ.. أنا لا أدعي أي شيء، أسأل الشبان، يعرفون هذا عني، أنا أحس بكثير مما يحصل بعدئذ، وأرى في المنام أشياء كثيرة تتحقق.

-كثيرون يقولون هذا.. ولكن هذه أشياء، تفكر فيها كثيراً فتراها في منامك..

-قد أرى أشياء لم أفكر فيها ولا تخصني، وقد تكون تافهة أو مهمة..

-هذه تحدث مع الكثيرين... ليست شيئاً مهماً.

-ماذا جرى يا مصمودي .. أتكذبني؟! أرأيت كيف يحب الآخرون التشكيك، إذا لم يروا بأنفسهم؟!!

-لا لا تزعل، لست أشكك، ولكن أرى إن كنت مقتنعاً، أو أنك تجاملني، أو تجامل المقربين! بالمناسبة عمك كان موجوداً في الحصاد يوم قصة الأفعى والجردي، أسأله.

-لا.. أنا لا أجامل أحداً ولن أسأله.. ألا تعلم أن علاقتي به ليست على ما يرام؟! هذا لا يجوز يا نبيل! فهو عمك أولاً وأخيراً..

-صحيح أنه عمي، ولكن هناك أشياء كثيرة تقلقني.

حدق نبيل في وجه العجوز بصلاية:

-عم (أبو مصطفى) أتجيبني إذا سألتك؟!!

-الحمد لله.. لم تملّ مني إذن.. اسأل يا ولدي، اسأل ما يحلو لك.. وسأجيبك حتى تتعب.
-وتجيب بصراحة؟!!

-بصراحة نعم بصراحة.. أنا لا أعرف أن أتحدث إلا صريحاً، وهذا ما أوقعتني بمشاكل كثيرة، ولكن هذه طبيعتي.. أنا لا أخاف إلا من رب العالمين..

-ذاكرتك قوية كما قلت لي؟!!

-الحمد لله..

-وتجيبني بوضوح؟!!

-أخفتني يا نبيل لماذا تنظر هكذا؟! وتصبر بهذه الطريقة؟! اسأل! قلت لك اسأل!
تنبّه فجأة.. تصلّب في جلسته:

- مهلاً.. إلا إذا كنت ستسأل عن..

-نعم.. عن قصة عمي، وسبب خروجه من القرية..

-اسأل أباك..

مديراً وجهه عن جهة نبيل.

-أبي لا يقول لي.

-اسأل أمك!

-أمي لا تحبهم، ولا أعتمد على كلامها في هذا المجال، ولا تجرؤ على إخباري خوفاً من أبي.

-اسأل أم سعد!

هي مؤمنة به، وتدافع عنه، وتقاتل من يتحدث بهذا الكلام.

-اسأل غيري!

-أنا قصدتك أنت لصراحتك..

-لا أحب الخوض في مثل هذه الأحاديث.

-لا تخف، لن يعرف أحد عنك شيئاً.. ثم؛ هل أنت المسؤول عما حدث؟! الناس كلهم يتكلمون به، أسمع همساً ووشوشات، لكنهم لا يحكون أمامي، ولا تصلني إلا نتف من الحديث..

-لا.. لست خائفاً من هذا.. أنا يا ولدي على حافة قبري، مالي وما للمشاكل؟! كما أن الكلام في هذا الموضوع الآن له مغزى، قد تستغله جهات معينة ليست أفضل من عمك..

-أنا لا علاقة لي مع هذه الجهات..

-أعرف.. لا أشك في ذلك. ولكن لماذا تريد أن تعرف ومصر على ذلك؟!!

-من أجلي أنا؛ من أجل قناعاتي، لأعرف إن كنت أظلمه أم لا.

-أمرك يحيرني يا نبيل، مثلك من كان يمكن أن يستفيد من هذه الفرصة، ويصبح مرافقاً ومساعداً، ومن ثم وريثاً، فلديك من النباهة ما يؤمن ذلك. ولكن تعجبت حين علمت أن صديقك سليماً هو الذي أخذ هذا الدور منك وهذا ما يغضبك أليس كذلك؟!!

-هو لم يأخذه مني، لأنه لم يكن لي أصلاً، والقضية ليست قضية سليم أو بيت توفيق، القضية هي القناعة التي أبحث عنها..

-من الصعب الحصول عليها من الآخرين.

-هذا صحيح، ولكن جمع المعلومات يفيد.

-لكنها قصة قديمة، ولا فائدة من استرجاعها.

-كل معلومة لها قيمة، خاصة إذا كان هناك من يريد طمسها أو إظهارها بشكل مشوه.

-لقد تعبت من الكلام، وأحس بالجوع، سأعود إلى البيت.

-سحب عصاه ليستند إليها محاولاً النهوض.

-ماذا جرى لك يا عم، تشكو من عدم سماع الناس لك، وحين تجد من يستمع إليك تتهرب منه، وتتوقف عن الكلام، أليس هذا لغزاً يحتاج إلى تفسير؟!!

-بعض الكلام يضر إذا ما خرج، أكثر مما يضر ابتلاعه.

-حتى لو تحدثت به إلى السنديانة؟!!

-أنت لست كالسنديانة حتى لو كانت خضرتك ظاهرة للعيان: اعذرنى يا ولدى.
ينهض بقوة كأنما نزلت عليه للتو، وأخذ يدب على عصاه بخفة، يلاحقه نبيل بنظرات استغراب،
وهو يتجه صوب البيوت التي تكوى تحت شمس حارقة.

تَمَّتْ